المبحث الثامن

"جمع القرآن وترتيبه"

الجمع الأول كان في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وسببه: حفظًا وكتابةً.

الجمع الثاني كان في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- وسببه: حفظ القرآن من الزوال بسبب كثرة استشهاد القراء في حرب الردة.

الجمع الثالث كان في عهد عثمان -رضي الله عنه- وسببه: جمع الأمة على قراءة واحدة.

يطلق جمع القرآن ويراد به عند العلماء أحد معنيين: الأول: جمعه بمعنى حفظه، وجماع القرآن: حفاظه، وهذا المعنى هو الذي ورد في قوله تعالى في خطابه لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، وقد كان يحرك شفتيه ولسانه بالقرآن: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٧].

الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته كله، مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط، أو كل سورة في صحيفة على حدة.

أ- جمع القرآن بمعنى حفظه على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-:

نزل القرآن في بضع وعشرين سنة؛ فربما نزلت الآية المفردة، وربما نزلت آيات عدة إلى عشر، وكلما نزلت آية حفظت في الصدور، ووعتها القلوب، والأمة العربية.

ب- جمع الفرآن يعني كتابته على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-:

اتخذ الرسول -صلى الله عليه وسلم كُتابًا للوحي من أجلاء الصحابة "كعلي، ومعاوية، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت" تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها، ويرشدهم إلى موضعها من سورتها.

كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداءً من أنفسهم دون أن يأمره النبي -صلى الله عليه وسلم- فيخطونه في العسب، والكرانيف، والرقاع، والأكتاف.

وكان الصحابة يعرضون على الرسول -صلى الله عليه وسلم- ما لديهم من القرآن حفظًا وكتابة ...تكن هذه الكتابة في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- مجمعة في مصحف واحد.

وقبض الرسول -صلى الله عليه وسلم- والقرآن محفوظ في الصدور، مكتوب في الصحف، مفرق في الآيات والسور، **وهذا ما يسمى بالجمع الأول.**

في عهد أبي بكر -رضي الله عنه-

قام أبو بكر -رضي الله عنه- بأمر الإسلام بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وواجهته أحداث جسام في ارتداد جمهرة العرب، وجهز الجيوش، وكانت غزوة أهل اليمامة عام ١٢ هـ تضم عدد كثيرًا جدًا من الصحابة القراء؛ فاستشهد في الغزوة سبعين قارئًا من الصحابة؛ فهال عمر بن الخطاب، ودخل على أبي بكر وأشار عليه بجمع القرآن وكتابته؛ خشية الضياع.

رفض أبو بكر في باديء الأمر، حتى لا يفعل ما لم يفعله الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ولكن شرح الله صدره، وأرسل لزيد بن ثابت لمكانته في القراءة والكتابة والفهم والعقل.

فأمر أبو بكر بجمع القرآن في مصحف واحد مرتب الآيات والسور، وأن تكون كتابته غاية من التثبت، مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، فكان أبو بكر أول من جمع القرآن بهذه الصفة في مصحف واحد، **وهذا ما يسمى بالجمع الثاني.**

في عهد عثمان -رضي الله عنه-:

اتسعت الفتوحات الإسلامية، وتفرق القراء في الأمصار ... فلما كانت غزوة أرمينة وأذربيجان من أهل العراق، كان فيمن غزاهما حذيفة بن اليمان؛ ورأى اختلافًا كثيرًا في وجوه القراءة، وتكفيرًا لبعضهم البعض، ففزع إلى عثمان؛ فأمر بجمع كل المصاحف التي كانت عند أبي بكر، وأرسل إلى حفصة فأرسلته إليه، ثم أرسل إلى يزيد وعبد الله بن الزبير وغيرهم، وأمرهم أن ينسخوها في مصاحف، وأن يكتب بلسان قريش؛ فإنه نزل بلسانهم، وأمر بأن ما سواه من القرآن أن يحرق.

وهذا يدل على أن ما فعله عثمان قد أجمع عليه الصحابة، كتبت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبع التي نزل بها القرآن ليجتمع الناس على قراءة واحدة، ورد عثمان المصحف إلى حفصة.

فإن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة، ولو أوجب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الأمة القراءة بها جميعًا لوجب نقل كل حرف منها نقلًا متواترًا تقوم به الحجة، **وهذا ما يسمى بالجمع الثالث، وكان سنة ٢٥ هـ.**

<u>الفرق بين جمع أبي بكر -رضي الله عنه-، وجمع عثمان -رضي الله عنه-:-</u>

تبين من النصوص أن جمع أبي بكر يختلف عن جمع عثمان في الباعث والكيفية، فالباعث لدى أبي بكر هو: جمع القرآن خشية ذهابه لذهاب حملته، حين استحر القتل بالقراء.

والباعث لدى عثمان هو: كثرة الاختلاف في وجوه القراء، وكفر بعضهم بعضًا، وكانت هذه هي أول حادثة تكفيرية.

وجمع أبي بكر للقرآن كان نقلًا لما كان مفرقًا في الأكتاف والرقاع.

وجمع عثمان للقرآن كان نسخًا له على حرف واحد من الحروف السبعة حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد.

وقد اختلف العلماء في عدد المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الآفاق، فقيل:

١- **كان عددها سبعة،** وأرسلت إلى مكة، والشام، والبصرة، والكوفة، واليمن، والبحرين، والمدينة.
٢- وقيل: **كان عددها أربعة،** العراقي، والشامي، والمصري، والمصحف الإمام.
٣- وقيل: **كان عددها خمسة،** وذهب السيوطي إلى أن هذا هو المشهور.

شبهة مردودة

هناك شبهة يثيرها أهل الأهواء لتوهين الثقة بالقرآن والتشكيك في دقة جمعه، ونحن نورد أهمها ونرد عليها:-

١- قالوا إن الآثار قد دلت على أن القرآن قد سقط منه شيء لم في المصاحف التي بأيدينا اليوم ...

ويجاب عن هذا بأن تذكير الرسول -صلى الله عليه وسلم- بآية أو آيات قد أنسيها أو أسقطها نسيانًا لا يشكك في جمع القرآن.

وما يرد من أنه -صلى الله عليه وسلم- نسي شيئًا كان يذكره فذلك إن صح فهو في غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التي أمر بتبليغها.

٢- قالوا إن في القرآن ما ليس منه، واستدلوا على ذلك بما ورد من أن ابن مسعود رضي الله عنه أنكر أن المعوذتين من القرآن.

ويجاب عن هذا بأن ما نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه لم يصح، وهو مخالف لإجماع الأمة، وعلى فرض صحته، فالذي يُحْتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فتوقف في أمرهما.

وإنكار ابن مسعود لا ينقض إجماع الأمة على أن المعوذتين من القرآن المتواتر.

ويزعم نفر من غلاة الشيعة أن أبا بكر وعمر وعثمان حرفوا القرآن، وأسقطوا منه بعض آياته وسوره، فحرفوا لفظ ﴿أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل:٩٢]، والأصل "أئمة هي أزكى من أئمتكم".

ويجاب عن ذلك بأن هذه الأقوال أباطيل لا سند لها، ودعاوى لا بينة عليها، والكلام فيها حمق وسفالة.

ترتيب الآيات والسور

ترتيب الآيات

القرآن سور وآيات منها القصار والطوال، والاية: هي اجملة من كلام الله المندرجة في سورة من القرآن.

والسورة: هي الجملة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع.

ترتيب الآيات في القرآن الكريم توقيفي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا شبهة في ذلك، بعض العلماء الذين أجمعوا على ذلك منهم الزركشي في "البرهان" وأبو جعفر بن زبير في "مناسباته" وجزم السيوطي بذلك.

وقف عثمان في جمع القرآن عند موضع كل آية من سورتها في القرآن ولو كانت منسوخة الحكم لا يغيرها، وهذا يدل على أن كتابتها بهذا الترتيب توقفيفية.

وجاءت الأحاديث الدالة على فضل آيات من سور بعينها، ويستلزم أن يكون ترتيبها توقيفيًا.

ترتيب السور

اختلف العلماء في ترتيب السور:

١- فقيل: إنه توقيفي تولاه النبي -صلى الله عليه وسلم- كما أخبر به جبريل عن أمر ربه فكان القرآن على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- مرتب السور، كما كان مرتب الآيات على هذا الترتيب الذي لدينا اليوم، وهو ترتيب مصحف عثملن -رضي الله عنه- بالإجماع عليه.

٢- وقيل: إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة، بدليل اختلاف مصاحفهم في الترتيب؛ فمصحف على بن أبي طالب -رضي الله عنه- كان مرتب على النزول، أوله اقرأ، ثم المدثر، ثم ن والقلم، ثم المزمل، إلى آخر المكي والمدني.

وكان مصحف ابن مسعود -رضي الله عنه- أوله البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران.
وكان مصحف أبي بن كعب -رضي الله عنه- أوله الفاتحة، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران.

٣- وقيل: إن بعض السور ترتيبه توقيفي وبعضها اجتهادي باجتهاد الصحابة، حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور في عهد النبوة؛ فقد ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال، والحواميم، والمفصل في حياته -صلى الله عليه وسلم-.

وقال ابن حجر: "ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفيًا" واستدل بحديث حذيفة الثقفي.

وقال ابن حجر أن هذا دليل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقال يحتمل أن الذي كان مرتبًا حينئذ حزب المفصل خاصة بخلاف ما عداه.

وإذا ناقشنا الآراء الثلاثة السابقة تبين لنا:

أن الرأي الثاني الذي يرى أن ترتيب السور باجتهاد الصحابة لم يستند إلى دليل يعتمد عليه,

فاجتهاد بعض الصحابة في ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختيارًا منهم قبل أن يُجمع القرآن جمعًا مرتبًا، فلما جُمع القرآن في عهد عثمان بترتيب الايات والسور على حرف واحد، واجتمعت الأمة على ذلك، تركوا مصاحفهم، ولو كان الترتيب اجتهاديًا لتمسكوا بها.

وحديث سورتي الأنفال والتوبة الذى روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، قال فيه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على مسند الإمام أحمد بن حنبل إنه حديث لا أصل له.

"وغاية ما فيه أنه دليل على عدم الترتيب بين هاتين السورتين فقط".

أما الرأي الثالث الذي يرى أن بعض السور ترتيبها توقيفي، وبعضها اجتهادي:

فإن أدلته ترتكز على ذكر النصوص الدالة على ما هو توقيفي، أما القسم الاجتهادي فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادي.

وبهذا يترجح أن ترتيب السور توقيفي كترتيب الآيات.

قال أبو بكر الأنباري: "فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن".

وقال الكرماني في البرهان: "ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ".

ومال السيوطي إلى ما ذهب إليه البيهقي، فقال: "كان القرآن على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، مرتبًا سوره وآياته على هذا الترتيب، إلا الأنفال والتوبة لحديث عثمان".

آخر ما نزل من الآيات: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فأمر جبريل -عليه السلام- **النبي** -صلى الله عليه وسلم- أن يضعها بين آيتين الربا والدين.

سور القرآن وآياته

سور القرآن أقسام أربعة:

١- الطوال.
٢- المئين.
٣- المثاني.
٤- المفصل.

أرجح الآراء فيها:-

١- الطوال سبعة: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، والسابعة قيل إنها الأنفال والتوبة معًا لعدم الفصل بينهما بالبسملة، وقيل هي يونس.
٢- المئون: وهي التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.
٣- المثاني: وهي التي تليها في عدد الآيات، وسميت بذلك لأنها تثنى في القراءة وتكرر أكثر من الطوال والمئين.
٤- المفصل: قيل: من أول سورة "ق"، وقيل: من أول سورة "الحجرات"، وقيل: غير ذلك، وأقسامه ثلاثة: * طواله، * وأوساطه، *وقصاره.

فطواله: من "ق" أو "الحجرات" إلى "عم" أو "البروج".

وأوساطه: من "عم" أو "البروج" إلى "الضحى" أو إلى "البينة".

وقصاره: من "الضحى" أو البينة" إلى "آخر القرآن" "على خلاف ذلك".

وتسميته بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة.

تعداد السور: ١١٤ سورة، وقيل: ١١٣ بجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة.

تعداد الآيات: ٦٢٠٠ آية، واختلفوا فيما زاد عن ذلك.

أطول الآيات: آية الدَين.

أطول السور: سورة البقرة.

وهذه التجزئة تيسر على الناس الحفظ.

الرسم العثماني

اتبع زيد بن ثابت والثلاثة القرشيون الذين معه هذه الطريقة، خاصة في الكتابة، ارتضاها لهم عثمان، ويسمي العلماء هذه الطريقة "بالرسم العثماني للمصحف" نسبة إليه.

واختلف العلماء في حكمه:

١- فذهب بعضهم إلى أن هذا الرسم العثماني للقرآن توقيفي يجب الأخذ به في كتابة القرآن، ونسبوا التوقيف فيه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، والتمسوا لذلك الرسم أسرارًا تجعل للرسم العثماني دلالة على معانٍ خفية دقيقة؛ كزيادة **الياء** في **أيد:** ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]؛ وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السما، وأنها لا تشبه قوة على حد القاعدة المشهورة، وهي: "زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى".
وهذا الرأي لم يرد فيه شيء عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى يكون الرسم توقيفيًا.

٢- ذهب كثير من العلما إلى أن الرسم العثماني ليس توقيفًا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكنه اصطلاح ارتضاه عثمان، وتلقته الأمة بالقبول، فيجب الالتزام والأخذ به، ولا تجوز مخالفته.

فقال الإمام أحمد: "تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو، أو ياء، أو ألف، أو غير ذلك".

٣- ذهب جماعة إلى أن الرسم العثماني اصطلاحي، ولا مانع من مخالفته إذ اصطلخ الناس على رسم خاص للإملاء، وأصبح شائعًا بينهم، فقال القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه "الانتصار": "وأما لكتابة فلم يعرض الله على الأمة فيها شيئًا أو لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسمًا بعينه دون غيره، وليس من نصوص الكتاب ولا مفهومه أن الرسم وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص ومحدد، لا يجوز تجاوزه، ولا في السنة، ولا في إجماع الأمة".

ومن هذا الرأي يدعو بعض الناس اليوم إلى كتابة القرآن وفق القواعد الإملائية الشائعة، المصطلح عليها؛ للتسهيل للدارسين.

والذي يراه د/ مناع القطان: "أن الرأي الثاني هو الرأي الراجح، وأنه يجب كتابة القرآن بالرسم العثماني المعهود في مصحف عثمان".

فهو الرسم الاصطلاحي الذي توارثته الأمة منذ عهد عثمان -رضي الله عنه- والحفاظ عليه ضمان قوي لصيانة القرآن من التغيير والتبديل في حروفه.

ولو أبيح كتابته بالاصطلاح كما ذكر القاضي أبو بكر الباقلاني لأدى إلى تغير خط المصحف من عصر لآخر.

فاختلاف الخطوط الذي يقصده القاضي أبو بكر شيء، والرسم شيء آخر.

فاختلاف الخط تغير في صورة الحرف لا في رسم الكلمة.

وحجة تيسير القراءة على الدارسين لا تكون مبررًا للتغيير الذي يؤدي إلى التهاون في تحري الدقة بكتابة القرآن.

قال البيهقي في شعب الإيمان: "من يكتب مصحفًا فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه،ولا يغير ما كتبوه؛ فإنهم كانوا أكثر علمًا وأصدق قلبًا ولسانًا، أوعظم أمانة منّا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكًا عليهم".

تحسين الرسم العثماني

كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل "التشكيل" اعتمادًا على السليقة العربية السليمة التي لا تحتاج إلى الشكل بالحركات، ولا إلى الإعجام بالنقط.

"واختلف العلماء في أول جهد بذل في ذلك السبيل":

فيرى كثير منهم أن أول من فعل ذلك هو: "أبو الأسود الدؤلي" الذي ينسب إليه وضع ضوابط العربية بأمر من علي بن أبي طالب.

ويروى في ذلك أنه سمع قارئًا يقول: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:٣] فقرأها بجر اللام "ورسولِه" ففزع هذا اللحن بالأسود، ثم ذهب إلى زياد والي البصرة، وقال لها: قد أجبتك إلى ما سألت بجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله فتتباطئ في الجواب، حتى رعاه هذا الحادث، وهنا جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وهكذا ... .

ويذكر السيوطي في "الإتقان": أن أبا الأسود أول من فعل ذلك بأمر من عبد الملك بن مروان، حين كثرت التصحيفات في العراق، ففكر الولاة في النقط والتشكيل.

وهناك روايات أخرى تُنسب إلى الحسن البصري، ويحي بن يعمر، ونصر بن عاصم الليثي، وأبو الأسود الدؤلي هو الذي اشتهر عنه ذلك.

"وربما كان للآخرين جهود أخرى بذلت في تحسين الرسم وتيسيره".

"وقد وصلت العناية بتحسين رسم المصحف اليوم ذروتها في الخط العربي".

الفواصل ورؤس الآي

تميز القرآن الكريم بمنهج فريد في فواصله ورؤس آياته، ونعني بالفاصلة: الكلام المنفصل عمّا بعده، وقد يكون رأس آية وقد لا يكون.

وتقع الفاصلة عند نهاية المقطع الخطابي.

"سميت بذلك لأن الكلام ينفصل عندها".

ونعني برأس الآية: نهايتها التي توضع بعدها علامة الفصل بين آية وآية، ولهذا قالوا: "كل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية".

فالفاصلة تعم النوعين، وتجمع الضربين، لأن رأس كل آية يفصل بينها وبين ما بعدها.

ومثل هذا قد يسمى في كلام الناس سجعًا في علم البديع، ولكن كثيرًا من العلماء لا يطلق هذا الوصف على القرآن؛ سُمُوًا به عن كلام الأدباء، وفرقوا بين الفواصل والسجع، بأن الفواصل في القرآن: هي التي تتبع المعاني، ولا تكون مقصودة لذاتها.

أما السجع: فهو الذي يقصد في نفسه، ثم يحيل المعنى عليه، لأنه موالاة الكلام على وزن واحد، "وهذا ما قاله القاضي أبو بكر الباقلاني".

لأن مجيئه على صورته لا يقتضي كونه هو ... لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدى بالسجع.

"والذي يراه د/ مناع القطان: أنه إذا كان المراد بالسجع مراعاة موالاة الكلام على وزن واحد دون مراعاة المعنى، فإن هذا تكلف ممقوت في كلام الناس، فضلًا عن كلام الله، أما إذا روعيت المعاني، وجاء الاتفاق في الوزن تابعًا لهادون تكلف؛ فهذا ضرب من ضروب البلاغة، قد يأتي في القرآن، وإذا سمينا هذا في القرآن بالفواصل دون السجع فذلك لتلافي إطلاق السجع على القرآن بالمعنى الأول.

<u>الفواصل في القرآن الكريم أنواع، منها:-</u>

١- فواصل متماثلة، كقوله: ﴿وَالطُّورِ﴾[الطور:١] ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾[الطور:٢]، وقوله: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر:١] ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:٢]، وقوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥] ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٦].

٢- فواصل متقاربة في الحروف، كقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] للتقارب بين الميم والنون في المقطع، وقوله: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، بتقارب الدال والباء.

٣- المتوازي: وهو أن تتفق الكلمتان في الوزن وحروف السجع، كقوله: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية:١٣] ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾[الغاشية:١٤].

٤- المتوازن: وهو أن يراعى في مقاطع الكلام الوزن فقط، كقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ [الغاشية:١٥] ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية:١٦].

وقد يراعى في الفواصل (زيادة حرف)، كقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب:١٠] إلحاق ألف على نون لتساوي المقاطع وتناسب نهايات الفواصل، أو (حذف حرف) كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر:٤] بحذف الياء، لأن مقاطع الفواصل السابقة واللاحقة بالراء.

أو "تأخير ما حقه التقديم لنكتة بلاغية أخرى، كتشويق النفس إلى الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه:٦٧]، لأن الأصل في الكلام أن يتصل بفاعله، ويؤخر المفعول، لكنه أخر الفاعل هنا، وهو "موسى" للنكتة البلاغية السابقة على رعاية الفاصلة.

المبحث الثاني عشر

"الفرق بين المحكم والمتشابه"

أنزل الله الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا؛ فرسم للخلق العقيدة السليمة، والمبادئ القويمة في آيات بينات واضحة للعالم، وذلك فضل من الله على الناس، حيث أحكم لهم أصول الدين؛ لتسلم لهم عقائدهم، ويتبين لهم الصراط المستقيم.

وتلك الآيات هي أم الكتاب التي لا يقع الاختلاف في نصها "أو فهمها" سلامة لوحدة الأمة، وصيانة لكيانها: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣].

وقد تأتي هذه الأصول البينة في أكثر من موضع بالقرآن مع اختلاف اللفظ والعبارة والأسلوب، إلا أن معناها يكون واحدًا ... أما عدا تلك الأصول من فروع الدين فإن في آياتها من العموم والاشتباه ما يفسح المجال أمام المجتهدين في العلم.

الإحكام العام والتشابه العام

المحكم لغة: مأخوذ من حُكِمَت الدابة وأُحْكِمَت، بمعنى مُنِعَت، والحكم هو الفصل بين الشيئين، فالحاكم يمنع الظلم، ويفصل بين الخصيمين.

وإحكام الشيء: إتقانه، والمحكم: المتقن.

فإحكام الكلام: إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره، والرشد في "ليست واضحة" في أومره، والمحكم منه: ما كان كذلك.

وقد وصف الله القرآن كله بأنه محكم على هذا المعنى فقال: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، فالقرآن كله محكم، أي أنه كلام متقن، فصيح، يميز بين الحق والباطل، والصدق والكذب. **وهذا هو الإحكام العام.**

والمتشابه لغة: مأخوذ من التشابه، وهو أن يشبه أحد الشيئين الاخر.

والشبهه: هي ألا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عينًا كان أو معنى، قال تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة:٢٥]، أي يشبه بعضه بعضًا، لونًا لا طعمًا وحقيقة، وقيل متماثل في الكلام والجودة.

فتشابه الكلام: هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضًا، وقد وصف الله تعالى القرآن كله بأنه متشابه على هذا المعنى، كقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣].

فالقرآن كله متشابه، أي أن يشبه بعضه بعضًا في الكمال، والجودة، ويصدق بعضه بعضًا في المعنى ويماثله. **وهذا هو التشابه العام.**

وكل من المحمكم والمتشابه بمعناه المطلق المتقدم لا ينافي الآخر ... فالقرآن كله متقن "محكم" وهو متماثل يصدق بعضه بعضًا ... فإن الكلام المحكم المتقن تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه، فإذا أمر القرآن بأمر، لم يأمر بنقيضه: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

الإحكام الخاص والتشابه الخاص

وهناك إحكام خاص، وتشابه خاص ذكرهما الله في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧].

وفي معناهما وقع الاختلاف على أقوال، أهمها:

١- المحكم: ما عُرِفَ المراد منه. والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه.
٢- المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا. والمتشابه: ما احتمل أوجهًا.
٣- المحكم: ما استقل بنفسه ولم يتحتج إلى بيان. والمتشابه: ما لا يستقل بنفسه، واحتاج إلى بيان برده إلى غيره.

ويمثلون للمحكم في القرآن بناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، ووعده، ووعيده.

ويمثلون للمتشابه بمنسوخه، وكيفيات أسماء الله وصفاته التي في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، وقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠]، وأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم وعلم الساعة.

الاختلاف فى معرفة المتشابه

كما وقع الاختلاف في معنى كل من المحكم والمتشابه الخاصين، وقع الاختلاف في إمكان معرفة المتشابه، ومنشأ هذا الاختلاف اختلافهم في الوقف في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ هل هو مبتدأ، خبره ﴿يَقُولُونَ﴾ والواو للاستئناف ... والوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أهو معطوف على ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حال، والوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

مذهب أبي ابن كعب، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم من التابعين إلى الأول "الاستئناف" مستدلين بمثل ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ويقول وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ آمَنَّا بِهِ﴾.

وبقراءة ابن مسعود: ﴿وإن تأويله عند الله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، وبما دلت عليه الآية من ذم متبعي المتشابه، ووصفهم بالزيغ، وابتغاء الفتنة.

وذهبت طائفة على رأسهم مجاهد: إلى الرأي الثاني "العطف" فقد أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ قال: "يعلمون تأويله ويقولون آمنا به".

واختارهذا القول النووي، فقال في شرح مسلم: إنه الأصح، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده ما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته.

التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل:

بالرجوع إلى معنى "التأويل" يتبين أنه لا منافاة بين الرأيين، فإن لفظ التأويل ورد لثلاث معانٍ:

١- صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو اصطلاح أكثر المتأخرين.
٢- التأويل بمعنى التفسير، فهو الكلام الذي يفسر به اللفظ حتى يُفهم معناه.
٣- التأويل: هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام.

فالذين يقولون بالوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ استئنافًا؛ إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث ... أي الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فحقيقة ذات الله، وكيفية أسمائه وصفاته لا يعلمها إلا الله.

والذين يقولون بالوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ على أن الواو للعطف وليست للاستئناف؛ إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث "المفروض الثاني" ... أي التفسير، ومجاهد إمام المفسرين، قال الثوري فيه: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك فيه.

وبهذا يتضح أنه لا منافاة بين المذهبين في النهاية، وإنما الأمر يرجع إلى الاختلاف في معنى التأويل.

ففي القرآن ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه في الدنيا ولكن الحقيقة ليست كالحقيقة، ولهاا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، قالوا: "الاستدلال معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

وكذلك الشأن بالنسبة إلى إخبار الله عن اليوم الآخر؛ ففيها ألفاظ تشبه معانيها إلا أن الحقيقة غير الحقيقة؛ ففي الآخرة ميزان وجنة ونار، وذلك ما نعلمه ونؤمن به،

وندرك أن الغائب أعظم من الشاهد، وما في الآخرة يمتاز عما في الدنيا، ولكن حقيقة هذا الامتياز غير معلومة لنا، وهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله.

التأويل المذموم

وهو بمعنى: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به.

وإنما لجأ إليه الكثير من المتأخرين مبالغة منهم في تنزيه الله تعالى عن مماثلته للمخلوقين كما يزعمون.

وهذا زعم باطل أوقعهم في مثل ما هربوا منه وأشد.

فهم حين يؤولون اليد بالقدرة مثلا؛ إنما قصدوا الفرار من أن يثبتوا للخالق يدًا لأن للمخلوقين يدًا، فاشتبه عليهم لفظ اليد فأولوها بالقدرة، "وذلك تناقض منهم".

فلا يجوز أن يقال: إن هذا اللفظ مؤول بمعنى أنه مصروف عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح.

"وما جاء عن أئمة السلف وغيرهم من ذم للمتأولين إنما هو لمثل هؤلاء الذين تأولوا ما يشتبه عليهم معناه على غير تأويله، وإن كان لا يشتبه على غيرهم".

المبحث الثالث عشر

"العام والخاص"

تعريف العام وصيغ العموم:

العام: هو اللفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر، **انتقد الآمدي هذا التعريف**، وقد اختلف العلماء في معنى العموم، أله في اللغة صيغة موضوعة له خاصة به تدل عليه أم لا؟

فذهب أكثر العلماء إلى أن هناك صيغًا وضعت في اللغة للدلالة حقيقة على العموم، وتستعمل مجازًا فيما عداه، واستدلوا على ذلك بأدلة نصية، واجتماعية، ومعنوية.

١- فمن الأدلة النصية: قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود:٤٥]، ووجه الدلالة أن نوح توجه بالنداء تمسكًا منه بقوله: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود:٤٠]، وأقره الله على هذا النداء، وأجابه بما دل على أنه ليس من أهله، فلولا أن إضافة الأهل إلى نوح للعموم لما صح ذلك.

ومنها قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣١]، ووجه الدلالة أن إبراهيم فهم من قول الملائكة: ﴿أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ العموم؛ حيث ذكر "لوطًا" فأقره الملائكة على ذلك، وأجابوه بتخصيص لوط وأهله بالاستثناء إلا امرأته من الناجين، وذلك كله يدل على العموم.

٢- ومن الأدلة الاجتماعية: إجماع الصحابة على إجراء قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢]، وقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، وكل ذلك على العموم في كل زانٍ وسارقٍ.

٣- ومن الأدلة المعنوية: أن العموم يفهم من استعمال ألفاظه، ولو لم تكن هذه الألفاظ موضوعة له لما تبار إلى الذهن فهمه منها؛ كألفاظ الشرط، والاستفهام، والموصول.

وبناءً على هذا فللعموم صيغه التي تدل عليه:

منها: "كل" كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، ومثلها "جميع".

ومنها المعرف بـ "الـ" التي ليست للعهد، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

ومنها النكرة في سياق النفي والنهي، كقوله: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

ومنها "الذي والتي" وفروعها، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾.

وأسماء الشرط كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فلا جناح﴾ للعموم في العاقل.

ومنها اسم الجنس المضاف إلى معرفة، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾.

أقسام العام

والعام علي ثلاثة أقسام:-

١- الباقي على عمومه ، ومثاله عزيز إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص.

وذكر الزركشي في البرهان أنه كثير في القرآن وأورد منه قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، فلا خصوص فيها.

٢- العام المراد به الخصوص كقوله ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ فالمراد بالناس الأولى نعيم بن مسعود، والمراء بالناس الثانية أبو سفيان، لا العموم في كل منهما، ويدل على هذا قوله ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ فوقعت الإشارة بقوله (ذلكم) إلى واحد بعينه.

٣- العام المخصوص، وأمثلته في القرآن كثيرة، منه قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

الفرق بين العام المراد به المخصوص والعام المخصوص

١- أن العام المراد به الخصوص: لا يراد شموله لجميع الأفراد من أول الأمر، لا من جهة تناول اللفظ، ولا من جهة الحكم، بل هو ذو أفراد، استعمل في فرد واحد منهما أو أكثر.

أما العام المخصوص: فأريد عمومه وشموله لجميع الأفراد من جهة تناول اللفظ ،لا من جهة الحكم.

٢- الأول مجاز قطعًا لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلي واستعماله في بعض أفراده، بخلاف الثاني فالأصح فيه أنه حقيقة، وعليه أكثر الشافعية وكثير من الحنفية وجميع الحنابلة.

٣- وقرينة الأول عقلية غالبا ولا تنفكعنه، وقرينة الثاني لفظية وقد تنفك.

تعريف الخاص وبيان التخصيص

الخاص: يقابل العام، فهو الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر.

والتخصيص: هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام.

والمخصص إما متصل، وهو الذي لم يفصل فيه بين العام والمخصص له بفاصل.

وإما منفصل، وهو بخلافه، **والمتصل خمسة**:

١- الاستثناء كقوله ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾.

٢- الصفة كقوله ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ فقوله ﴿ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ صفة ل (نسائكم).

٣- **الشرط، كقوله:** ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ **فقوله:** ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالًا، شرط في الوصية.

٤- **الغاية: كقوله:** ﴿وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾.

٥- **بدل البعض من الكل، كقوله:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، **فقوله "من استطاع" بدل من "الناس" فيكون وجوب الحج خاصًا بالمستطيع.**

المخصص المنفصل

ما كان في موضع آخر من آية أو حديث أو إجماع أو قياس، **فما خُصّ بالقرآن:** كقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾، فهو عام في كل مطلقة حاملًا كانت، أو غير حامل، مدخولًا بها، أو غير مدخول بها ... خُصّ بقوله: ﴿وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

وما خُصّ بالحديث: كقوله: و﴿أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ خص من البيع البيوع الفاسدة التي ذكرت في الحديث، "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عسب الفحل".

وما خص بالإجماع: آية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ خص منها بالإجماع الرقيق، لأن الرقّ مانع من الإرث.

وما خص بالقياس: آية الزنا: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ خص منها العبد بالقياس على الأمة.

تخصيص السنة بالقرآن

وقد يخصص القرآن السنة، ويمثلون لذلك بما روى عن أبي واقد الليثي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"ما قطع من البهيمة وهب حية فهو ميت" فهذا الحديث خص بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾.

صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقى

اختلف العلماء في صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقى، والمختار عند المحققين صحة الاحتجاج به فيما وراء صور التخصص، وأنكر الاحتجاج به عيسى بن أبان، وأبو ثور مطلقًا ... وقال البلخي: إن خص بدليل متصل كالشرط، والصفة، والاستثناء، فهو حجة، وإن خص بدليل منفصل فليس بحجة.

واستدلوا على ذلك بأدلة إجماعية وأدلة عقلية:-

١- فمن أدلة الإجماع: أن فاطمة احتجت على أن أبي بكر في ميراثها من أبيها بعموم قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ مع أنه مخصص بالكافر، والقاتل، ولم ينكر أحد من الصحابة صحة احتجاجها مع ظهوره وشهرته، فكان إجماعًا على صحة احتجاجها، ولذا عدل أبو بكر في حرمانها إلى الاحتجاج بقوله صلى الله عليه وسلم: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة".

٢- ومن الأدلة العقلية: أن العام قبل التخصيص حُجة في كل واحد من أقسامه إجماعًا، والأصل بقاء ما كان قبل التخصيص بعده، إلا أن يوجد له معارض.

*** سيظل العام بعد التخصيص حُجة فيما بقى***

ما يشمله الخطاب:

اختلف في الخطاب الخاص بالرسول -صلى الله عليه وسلم- كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

فهل يشمل الأمة أم لا يشملها؟

١- ذهب قوم إلى أنه يشملها باعتباره قدوة لها.

٢- وذهب آخرون إلى أنه لا يشملها، لأن الصيغة تدل على اختصاصه بها.

واختلفوا أيضًا في الخطاب من الله تعالى بـــ "يا أيها الناس" كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هل يشمل الرسول أم لا؟.

والصحيح في ذلك أنه يشمله لعمومه، وإن كان الخطاب قد ورد على لسانه ليبلغ غيره.

وقد فصل بعضهم فقال: إن اقترن الخطاب بـــ "قل" لم يشمله لأن ظاهره البلاغ كقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

وما ورد في الخطاب مضافًا إلى الناس أو المؤمنين كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى.﴾

فالمختار في الأول: أنه يشمل الكافر والعبد والأنثى.

والمختار في الثاني: أنه يشمل الأخيرين فقط؛ لمراعاة التكليف بالنسبة إلى الجميع.

وخروج العبد عن بعض الأحكام كوجوب الحج والجهاد إنما هو لأمر عارض كفقره واشتغاله بخدمة سيده.

ومتى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير، وأكثر خطاب الله تعالى في القرآن بلفظ التذكير، والنساء يدخلن في جملته.

وقد يأتي ذكرهن بلفظ مفرد تبينًا وإيضاحًا.

وهذا لا يمنع دخلوهن في اللفظ العام الصالح لهن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾.

المبحث الرابع عشر
"الناسخ والمنسوخ"

تتنزل التشريعات السماوية من الله تعالى على رسله؛ لإصلاح الناس في العقيدة والعبادة والمعاملة، وحيث كانت العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية والربوبية.

أما العبادات والمعاملات فإنها تتفق في الأسس العامة، التي تهدف إلى تهذيب النفس، والمحافظة على سلامة المجتمع، وربطه برباط التعاون والإخاء، إلا أن مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها، وما يلائم قومًا في عصر قد لا يلائمهم في آخر. فلا غرابة في أن يرفع تشريع بآخر مراعاةً لمصلحة العباد عن علم سابق بالأول والآخر.

تعريف الناسخ وشروطه:

والنسخ لغة: يطلق بمعنى الإزالة.

ومنه يقال: نسخت الشمس الظل أي أزالته.

ويطلق أيضًا بمعنى نقل الشيء من موضع إلى موضع، ومنه نسخت الكتاب: إذا نقلت ما فيه وفي القرآن: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف.

والنسخ في الاصطلاح: رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي ... فخرج بالحكم رفع البراءة الأصلية، وخرج بقولنا (بخطاب شرعي) رفع الحكم بموت، أو جنون، أو إجماع، أو قياس.

* **تعريف الناسخ:** كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ ويطلق الناسخ على الله، وعلى الآية، وما يعرف به النسخ، فيقال: هذه الآية ناسخة لآية كذا، وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر.

* **تعريف المنسوخ:** هو الحكم المرتفع، ويشترط في النسخ:

١- أن يكون الحكم المنسوخ شرعيًا.

٢- أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطابًا شرعيًا متراخيًا عن الخطاب المنسوخ حكمه.

٣- وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيدًا بوقت معين، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته، ولا يعد هذا نسخًا.

فكما قال مكي بن أبي طالب: "ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعرًا بالتوقيت والغاية، مثل قوله في سورة البقرة: ﴿مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ محكم غير منسوخ؛ لأنه مؤجل بأجل لا نسخ فيه.

ما يقع فيه النسخ:

من هنا يعلم أن النسخ لا يكون إلا في الأوامر والنواهي؛ سواء أكانت صريحة في الطلب، أو كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر أو النهي، على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التي ترجع إلى ذات الله، وصفاته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر،

أو الآداب الخلقية، أو أصول العبادات والمعاملات، لأن الشرائع لا تخلو عن هذه الأصول وهي متفقة فيها.

"كما لا يدخل النسخ الخبر الصريح الذي ليس بمعنى الطلب كالوعد والوعيد".

ما يعرف به النسخ وأهميته:

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين؛ حتى لا يختلط الأحكام، ووردت آثار كثيرة في الحث على معرفته.

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ طرق:-

١. النقل الصريح عن النبي –صلى الله عليه وسلم- أو عن صحابه "كحديث القبور وزيارتها".
٢. إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ.
٣. معرفة المتقدم من المتاخر في التاريخ.

ولا يعتمد في النسخ على الاجتهاد، أو قول المفسرين، أو التعارض بين الأدلة ظاهرًا، أو تأخر إسلام أحد الراويين.

الآراء في النسخ وأدلة ثبوته:

والناس في النسخ على أربعة أقسام:

١- اليهود: وهؤلاء ينكرونه، لأنه يستلزم في زعمهم البداء، وهو الظهور بعد الخلفاء، فيعنون أن النسخ إما أن يكون لغير حكمة، وهذا عبث ومحال عند الله، وإما أن يكون لحكمة ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل وهذا أيضًا محال، لأنه يستلزم البداء وسبق الجهل.

"واليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها".

٢- الروافض: وهؤلاء غلوا في إثبات النسخ، وتوسعوا فيه، وأجازوا البداء على الله تعالى، فهم مع اليهود على طرفي نقيض، واستدلوا على ذلك بأقوال نسبوها إلى "علي بن أبي طالب" زورًا وبهتانًا بقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ على معنى أنه يظهر له المحو والإثبات، وذلك ضلال وتحريف للقرآن.
٣- أبو مسلم الأصفهاني: وهو يجوز النسخ عقلًا، ويمنع وقوعه شرعًا، وقيل يمنعه في القرآن خاصةً محتجًا بقوله: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢].
٤- وجمهور العلماء: على جواز النسخ عقلًا، ووقوعه شرعًا، لأدلة:

أ. لأن أفعال الله لا تعلل بالأغراض، فله أن يأمر بالشيء في وقت، وينسخه بالنهي عنه في وقت، وهو أعلم بمصالح لعباد.

ب. ولأن نصوص الكتاب والسنة دالة على جواز النسخ ووقوعه:

١- قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:١٠٦].

٢- حديث ابن عباس عن أبي بن كعب.

أقسام النسخ

والنسخ أربعة أقسام:

القسم الأول: نسخ القرآن بالقرآن.

القسم الثاني: نسخ القرآن بالسنة، وهذا ينقسم إلى نوعان:-

١- نسخ القرآن بالسنة الأحادية: والجمهور علي عدم جوازه فى القرآن متواتر يفيد اليقين، والأحادي مظنون، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون.

نسخ القرآن بالسنة المتواترة: وقد أجاز مالك وأبو حنيفة وأحمد في راوية، لأن الكل وحي، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، والنسخ نوع من البيان، ومنعه الشافعي وأهل الظاهر وأحمد في الرواية الأخرى، لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ والسنة ليست خيرا من القرآن ولا مثله.

القسم الثالث: نسخ السنة بالقرآن، ويجيزه الجمهور، ومنع هذا القسم الشافعي في إحدى رويتيه، وقال حيث وقع بالسنة فمعها قرآن، أو بالقرآن فمعه سنة واحده تبين توافق الكتاب والسنة.

القسم الرابع: نسخ السنة بالسنة، وهذا ينقسم إلى أربعة أنواع:

١- نسخ متواترة بمتواترة: جائزة
٢- ونسخ أحاد بأحاد: جائزة
٣- ونسخ أحاد بمتواترة: جائزة
٤- ونسخ متواترة بأحاد، أما هذا النوع الرابع ففيه الخلاف الوارد في نسخ القرآن بالسنة الأحادية، والجمهور على عدم جوازه.

أما نسخ كل من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه.

أنواع النسخ في القرآن:

والنسخ في القرآن ثلاثة أنواع:

النواع الأول: نسخ التلاوة والحكم معا.

النوع الثاني: نسخ الحكم وبقاء التلاوة، ومثال حكم آية العدة بالحول مع بقاء تلاوتها، وهذا النوع هو الذي ألفت فيه الكتب، وذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة.

وقد يقال ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟

الجواب يأتي من وجهين:-

١- أن القرآن يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به، فإنه يتلى كذلك لأنه كلام الله، فيثاب عليه، فتركت التلاوة لهذه الحكمة.
٢- أن النسخ يكون غالبا للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيرًا بالنعمة في رفع المشقة.

(وأما حكمة النسخ قبل العمل كالصدقة عند النجوى فيثاب علي الإيمان به، وعلى نية طاعة الأمر).

النوع الثالث: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم: ومثاله .. آية الرجم.

حكمة النسخ:

١-مراعاة مصالح العباد.

٢-تطور التشريع إلى مرتبة الكمال.

٣-ابتلاء المكلف واختباره بالامتثال وعدمه.

٤-إرادة الخير للأمة والتيسير عليها.

النسخ إلى بدل وإلى غير بدل:

والنسخ يكون إلى بدل وإلى غير بدل.
والنسخ إلى بدل: إما إلى بدل أخف، وإما إلى بدل مماثل، وإما إلى بدل أثقل.
١] فالنسخ إلى غير بدل: كنسخ الصدقة بين يدي نجوى رسول الله –صلى لله عليه وسلم-.
وأنكر بعض المعتزلة ولظاهرية ذلك ... وقالوا إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعًا؛ حيث أفادت آية ما ننسخ من آية ... أنه لابد أن يؤتى مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر خير منه مثله.
ويجاب على ذلك: بأن الله تعالى إذا نسخ حكم الآية بغير بدل فإن هذا يكون بمقتضى حكمته ولمصلحة عباده.
٢] والنسخ إلى بدل أخف: يمثلون له بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] فهي ناسخة لقوله: ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣].
٣] النسخ إلى بدل مماثل: كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة.
٤] النسخ إلى بدل أثقل: كنسخ الحبس في البيوت في قوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾[النساء:١٥] وبالجلد في قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾.

شبهة النسخ:

وللناسخ والمنسوخ أمثلة كثيرة، إلا ن العلماء في هذا:

١. منهم المكثر الذي اشتبه عليه الأمر فأدخل في النسخ ما ليس منه.
٢. ومنهم المتحري الذي يعتمد على النقل الصحيح في النسخ.

- **ومنشأ الاشتباه عند المكثرين أمور أهمها:**

١. اعتبار التخصيص نسخًا.
٢. اعتبار البيان نسخًا.
٣. اعتبار ما شرع لسبب ثم زال السبب من المنسوخ. كالحث على الصبر وتحمل الأذى من الكفار في مبدأ الدعوة حين الضعف والقلة، قالوا إنه منسوخ بآيات القتال.
٤. اعتبار ما أبطله الإسلام من أمر الجاهلية أو من شرائع الأمم السابقة.

كتاب

الدكتور مناع القطان

٢٠٢١/١/٢٣ أ.د. أسامة شفيع علوم القرآن

المبحث الأول

"التعريف بالعلم وبيان نشأته وتطوره"

حرص الصحابة على تلقي القرآن من رسول الله (ص) وحفظه وفهمه وكان ذلك شرفًا لهم.

وحرصوا كذلك على العمل به والوقوف عند أحكامه.

ولم يكن يأذن لهم رسول الله في كتابه شيء عنه سوى القرآن خشية أن يلتبس القرآن بغيره.

ولكن كان رسول الله قد أذن لبعض صحابته بعد ذلك في كتابة الحديث فإن ما يتصل بالقرآن ظل يعتمد على الرواية بالتلقين في عهد رسول الله وهي خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهم.

وجاءت خلافة عثمان واقتضت الدواعي إلى جمع المسلمين على مصحف واحد وسمي بالمصحف الإمام وأرسلت نسخ منه إلى الأمصار وسميت كتابته بالرسم العثماني نسبه إليه ويعتبر هذا بداية (لعلم رسم القرآن).

ثم كانت خلافة علي فوضع أبو الأسود الدؤلي بأمر منه.

قواعد النحو لسلامة النطق. وضبطًا للقرآن ويعتبر هذا بداية لـ (علم إعراب القرآن).

ومن أِهر المفسرين من الصحابة: الخلفاء الأربعة (أبو بكر- عمر- علي- عثمان).

ابن مسعود أبي بن كعب أبو موسى الأشعري

ابن العباس زيد بن ثابت عبد الله بن الزبير

وقد كثرت الرواية في التفسير عن عبد الله بن عباس.

وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وما روى عنهم

لا يتضمن تفسيرًا كاملًا للقرآن وإنما يقتصر على معاني بعض الآيات بتغيير غامضها وتوضيح محملها.

أما التابعون فاشتهر من تلاميذ ابن عباس في مكة:

سعيد بن جبير، مجاهد، عكرمة.

طاوس بن كيان، عطاء بن أبي رباح.

وأشتهر من تلاميذ أبي بن كعب في المدينة:

زيد بن أسلم، أبو العالية، محمد بن كعب القرظي

وأشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود في العراق:

علقمه بن قيس، مسروق، الأسود ابن يزيد

عامر الشعبي، الحسن البصري، قتادة بن دعامة السدوسي.

جاء عصر التدوين في القرن الثاني وبدأ تدوين الحديث بأبوابه المتنوعة.

وهكذا بدأ التفسير أولًا بالنقل عن طريق التلقي والرواية ثم كان تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث ثم دُوِّن على استقلال وانفراد.

وبجانب علم التفسير كان التأليف الموضوعي في موضوعات تتصل بالقرآن ولا يستغنى المفسر عنها.

قالت: علي بن المديني شيخ البخاري في أسباب النزول.

- وألف أبو عبيد القاسم بن سلام في الناسخ والمنسوخ، وفي القراءات.
- وألف ابن قتيبة في مُشْكَل القرآن.

- "وهؤلاء من علماء القرن ٣ هـ".
- وألف محمد بن خلف بن المرزبان الحاوي في علوم القرآن
- وألف أبو بكر محمد بن القاسم الأبناري في علوم القرآن.
- وألف أبو بكر السجستاني في غريب القرآن.
- وألف محمد بن علي الأدفوي في الاستغناء في علوم القرآن.

"وهؤلاء من علماء القرن ٤ هـ"

- وألف أبو بكر الباقلاني في إعجاز القرآن.
- وألف علي ابن إبراهيم في إعراب القرآن.
- والعز بن عبد السلام في مجاز القرآن.
- وعلم الدين السخاوي في علم القراءات.
- وابن القيم في أقسام القرآن.

أما جمع هذه المباحث وتلك الأنواع كلها في مؤلف واحد لعلي بن إبراهيم ابن سعيد الشهير بالحوفي.

اسمه البرهان في علوم القرآن ويقع في ٣٠ مجلد.

والحوفي في هذا النهج يعتبر أول من دَون علوم القرآن ثم تبعه ابن الجوزي في كتابه فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن.

ثم جاء بدر الدين الزركشي وألف كتابًا وافيًا سماه البرهان في علوم القرآن ثم أضاف إليه بعض الزيادات جلال الدين البلقيني في كتابه مواقع العلوم من مواقع النجوم.

ثم ألف جلال الدين السيوطي كتابه الإتقان في علوم القرآن.

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف في عصر النهضة الحديثة أقل من العلوم الأخرى. فقد اتجه المتصلون بحركة الفكر الإسلامي اتجاهًا سديدًا في معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر مثل كتاب إنجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي وكتابي التصوير الفني في القرآن ومشاهد القيامة في القرآن للشهيد سيد قطب وترجمة

القرآن للشيخ محمد مصطفى المراغي وبحث فيها لمحب الدين الخطيب ومسألة ترجمة القرآن لمصطفى صبري والنبأ العظيم لمحمد عبد الله دُراز ومقدمة تفسير محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي.

- وألف الشيخ طاهر الجزائري كتاب سماه التبيان في علوم القرآن.
- وألف الشيخ محمد علي سلامة كتابه منهج الفرقان في علوم القرآن.
- وتلاه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني بكتابه مناهل العرفان في علوم القرآن.
- ثم الشيخ أحمد أحمد علي في مذكرة علوم القرآن.
- وصدر أخيرًا مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح وللأستاذ أحمد محمد جمال أبحاث على مائدة القرآن.

هذه المباحث جميعها هي التي تُعرف بعلوم القرآن.

والمراد بعلوم القرآن.. العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث أسباب النزول.. وجمع القرآن وترتيبه.. ومعرفة المكي والمدني والناسخ والمنسوخ.. والمحكم والمتشابه.. إلى غير ذلك صلة بالقرآن..

اسم الكتاب

المؤلف

المبحث الثاني

"القرآن"

تعريفه:

قرأ: تأتي بمعنى الجمع والضم والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل.

والقرآن في الأصل كالقراءة ← وهذا الصواب.

وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن غير مهموز الأصل في الاشتقاق.

رأي مرجوح:

وذكر العلماء تعريف يقرب المعنى ويميزه عن غيره بأنه:

كلام الله المنزل على محمد المتعبد بتلاوته فـ الكلام جنس في التعريف يشمل كل كلام وإضافته إلى الله يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة والمتنزل يخرج كلام الله الذي استأثر به سبحانه.

وتقييد المنزل بكونه على محمد يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله كالتوراة– والمتعبد بتلاوته يخرج قراءات الآحاد والأحاديث القدسية لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة.

أسماؤه:

- قد سماه الله بأسماء كثيرة منها:
  - القرآن.
  - الذكر.
  - الكتاب.
  - التنزيل.
  - الفرقان.

وقد غلب من أسمائه "القرآن" و"الكتاب" قال الدكتور محمد عبد الله دراز أنه روعي في تسميته "قرآنًا" كونه متلوًا بالألسن، كما روعي في تسميته "كتابًا" كونه مدونًا بالأقلام.

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد وهو أنه يجب حفظه الصدور والسطور جميعًا.

أن تضل إحداهما فتذكر إحدهما الأخرى.

<u>أوصافه:</u>

- وقد وصف الله القرآن بأوصاف كثيرة منها:

– نور – هدى – شفاء – رحمة – موعظة – نذير

– مبارك – مبين – بشري – عزيز – مجيد – بشير

"وكل تسمية أو وصف فهو باعتبار معنى من معاني القرآن".

<u>الحديث النبوي في الاصطلاح:</u>

ما أضيف إلى النبي (ص) من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

- فالقول ← كقوله "إنما الأعمال بالنيات ..
- والفعل ← صلوا كما رأيتموني أصلي.
- والإقرار ← كان يقر أمرًا علمه عن أحد الصحابة من قول أو فعل "أكل الضب على مائدته".
- والصفة ← كما روي من أنه "كان دائم البشر وسهل الحلق ولين الجانب..

<u>الحديث القدسي: في الاصطلاح</u>

هو ما يضيفه النبي (ص) إلى الله تعالى..

قال رسول الله (ص) فيما يرويه عن ربه عز وجل ...).

الفرق بين القرآن والحديث القدسي

هناك عدة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسي منها:

١. أن القرآن كلام الله أوحى به إلى رسول الله بلفظه وتحدى به العرب فعجزوا أن يأتوا بمثله.

أما الحديث القدسي لم يقع به التحدي والإعجاز.

٢. القرآن لا ينسب إلا إلى الله تعالى.

أما الحديث القدسي قد يروي مضافًا إلى الله وتكون النسبة إليه إنشاء فيقال قال الله تعالى أو يقول الله تعالى.

وقد يروي مضافًا إلى رسول الله (ص) وتكون النسبة إليه إخبار لأنه (ص) المخبر به عن الله فيقال قال رسول الله (ص) فيما يرويه عن ربه عز وجل.

٣. القرآن جميعه منقول بالتواتر فهو قطعي الثبوت.

أما الأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد فهي ظنية الثبوت وقد يكون الحديث القدسي صحيح، حسنًا، ضعيف.

٤. القرآن من عند الله تعالى لفظًا ومعنًا فهو وحي باللفظ والمعنى.

أما الحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه من عند الرسول (ص).

٥. القرآن متعبد بتلاوته.

أما الحديث القدسي لا يجزي في الصلاة ولكن يثبت الله على قرءاته.

الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي

الحديث النبوي قسمان:

- قسم توفيقي ← وهو الذي تلقى الرسول (ص) مضمونه من الوحي مبينه للناس بكلامه.

- قسم توفيقي ← وهو الذي استنبطه الرسول (ص) من فهمه للقرآن لأنه مبين له أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد.

ويتبين من ذلك أن الأحاديث النبوية بقسمها التوفيقي، التوفيقي الاجتهادي الذي آخره الوحي يمكن أن يقال فيها إن مردها جميعًا إلى الوحي.

والحديث القدسي كما ذكرنا معناه من عند الله أما ألفاظه فمن عند الرسول.

المبحث الثالث

"الوحي"

تعريفه:

يقال: وحيث إليه وأوحيت: إذا كلمته بما تخفيه عن غيره.

والوحي الإشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض.. والوحي مصدر.. ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين، هما: (الخفاء، والسرعة) ولذا قيل في معناه الإعلام الخفي السريع الخاص عن يوجه إليه بحيث يخفي على غيره.

والوحي بمعناه اللغوي يتناول:

١. الإلهام الفطري للإنسان.
٢. الإلهام الغريزي للحيوان.
٣. الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء.
٤. ووسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان.
٥. وما يُلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه.

ووحى الله إلى أنبيائه قد عرفوه شرعًا بأنه- كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أي الموحي.

والوحي بالمعنى المصدري اصطلاحًا:

هو إعلام الله تعالى من يصطفيه من عباده ما أراد من هداية بطريقة خفية وسريعة.

وعرفه الأستاذ محمد عبده في رسالة التوحيد بأنه ....

عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قِبَل الله بواسطة أو بغير واسطة.

ويفرق بين الوحي والإلهام بأن.. الإلهام وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى؟ وهو أشبهه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور.

كيفية وحي الله إلى ملائكته:

١. جاء في القرآن الكريم ما ينص على كلام الله لملائكته وعلى إيحائه إليهم وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره.

"وهذه النصوص متآزرة تدل على أن الله يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه".

٢. وثبت أن القرآن كُتب في اللوح المحفوظ.. كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا في ليلة القدر.

- ولذلك ذهب العلماء في كيفية وحي الله إلى جبريل بالقرآن إلى المذاهب الآتية:

(أ) أن جبريل تلقفه سماعًا من الله بلفظه المخصوص.

وهذا الرأي هو الصواب وهو ما عليه أهل السنة والجماعة فالقرآن الكريم كلام الله بألفاظه لا كلام جبريل أو محمد.

(ب) أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ.

وهذا الرأي لا اعتبار له إذا أن ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ كثبوت سائر الغيبيات التي لا يخرج القرآن عن أن يكون من جملتها.

(ج) أن جبريل ألقى إليه المعنى والألفاظ لجبريل أو محمد (ص).

وهذا الرأي أنسب بالسنة لأنها وحي من الله أوحى إلى جبريل ثم إلى محمد بالمعنى فعبر عنه رسول الله بعبارته.

كيفية وحي الله إلى رسله

يوحي الله إلى رسله بواسطة وبغير واسطة.

- فالأول: بواسطة جبريل ملك الوحي وسيأتي بيانه.

- والثاني: هو الذي لا واسطة منه.

أ) منه الرؤيا الصالحة في المنام وليس في القرآن شيء من هذا النوع لأنه نزل جميعه يقظة خلافًا لمن ادعى نزول سورة الكوثر منامًا للحديث الوارد فيها فلعل الاعتقاده هذه هي الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي.

ومما يدل على أن الرؤيا الصالحة للأنبياء في المنام وحي يجب إتباعه ما جاء في قصة سيدنا إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل.. ولو لم تكن الرؤيا وحيًا يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم على ذبح ولده لولا أن مَنَّ الله عليه.

والرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول فهي باقية للمؤمنين وإن لم تكن وحيًا فالرؤيا الصالحة في المنام للأنبياء هي القسم الأول من أقسام التكليم الإلهائي.

(ب) ومنه الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة يقظة وهو ثابت لموسى عليه السلام.. كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا (ص) ليلة الإسراء والمعراج وهذا النوع هو القسم الثاني المذكور في الآية { **أَوْ مِن ورَاءِ حِجَابٍ**} وليس في القرآن شيء منه كذلك.

كيفية وحي المَلَك إلى الرسول

ولا تخلو كيفية وحي الملك إلى الرسول من إحدى الحالتين:

الحالة الأولى.. وهي أشد على الرسول أن يأتيه مثل صلصلة الجرس.

والحالة الثانية.. أن يتمثل له الملك رجلًا ويأتيه في صورة بشر وهذه الحالة أخف من سابقتها.

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهي المشار إليه في الآية: {**ومَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وحْيًا أَوْ مِن ورَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**}.

س: أقسام التكليم الإلهي؟

ج: ١. بالوحي.

٢. من وراء حجاب.

٣. أن يرسل الله رسولًا فيوحي بإذنه.

شُبَه الجاحدين على الوحي

وقد حرص الجاهليون قديمًا وحديثًا على إثارة الشُبَه في الوحي استكبارًا.

١. فزعموا أن القرآن من عند محمد (ص).

(أ) وهذا زعم باطل فإنه عليه الصلاة والسلام إذا كان يدعى لنفسه الزعامة ويتحدى الناس بالمعجزات لتأييد زعامته فلا مصلحة له في أن ينسب ما يتحدى الناس إلى غيره.

(ب) ولا يقال إنه أراد بنسبة القرآن إلى الوحي الإلهي أن يجعل لكلامه حرمه تفوق كلامه حتى يستعين بهذا على استجابة الناس لطاعته وإنقاذ أوامره.

(ت) لقد اتهم المنافقون زوجة عائشة بحديث الإفك وهي أحب زوجاته إليه وإتهامها بمس كرامته وشرفه وأبطأ الوحي وتحرج الرسول (ص) وتحرج صحابته معه وبذل جهده في التحري والاستشارة، فماذا كان يمنعه لو أن القرآن كلامه من أن يقول كلامًا يقطع به ألسنة المتحرضين ويحمي عرضه؟

(ث) ونظير هذا معاتبته (ص) في قبول الغداء من أسرى بدر ومعاتبته في توليه عن عبدالله بن أم مكتوم الأعمى.

٢. زعموا أنه عليه الصلاة والسلام كان له من حدة الذكاء ونفاذ البصيرة وقوة الفراسة وشدة الفطنة وصفاء النفس وصدق التأمل ما يجعله يدرك مقاييس الخير والشر والحق والباطل بالإلهام.

وجاء الرد عليهم في سؤال.. وأي شيء في القرآن يعتمد على الذكاء والاستنباط والشعور؟

فالجانب الإخباري– وهو قسم كبير من القرآن لا يماري عاقل في أنه لا يعتمد إلا على التلف والتعلم.

فلقد ذكر القرآن أبناء من سبق من الأمم والجماعات والأنبياء والأحداث التاريخية بوقائعها الدقيقة كما يذكر شاهد عيان مع طول الزمن ولم يكن الرسول

يعاصر تلك الأمم. ومنها أبناء دقيقة تتناول الأرقام الحسابية التي لا يعلمها إلا الدارس البصير في قصة نوح { أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا} فمن أين أتى محمد (ص) بهذه الدقائق الصحيحة لو لم يكن يوحى إليه فهو عاش في أمه" أمية لا تكتب ولا تحسب.

٣. زعموا أن محمدًا قد تلقى العلوم القرآنية على يد معلم.

وهذا حق إلا أنه قد تعلم على يد المعلم وهو ملك الوحي أما أن يكون له معلم آخر من قومه أو من غير قومه فلا.

ونقول لهؤلاء ما اسم هذا المعلم؟ وعندئذ نرى جواب متهافت متداعي في (حداد رومد) ينسبون إليه ذلك فكيف يساغ مثلًا أن تكون العلوم القرآنية صادرة من رجل لم تعرفه مكة عالمًا.

المبحث الرابع

المكي والمدني

الذي يقرآ القرآن يجد الآيات المكية خصائص ليست للآيات المدنية في موقعها ومعانيها وإن كانت الثانية مبنية على الأولى من الأحكام والتشريع.

وقد عُنِي العلماء بتحقيق المكي والمدني عناية فائقة فتتبعوا القرآن آية أية وسورة سورة لترتيبها وفقًا نزولها مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب.

وحرص العلماء على الدقة في تبوء السور حسب منازلها سورة بعد سورة وقالوا سورة كذا نزلت بعد سورة كذا وازدادوا حرصًا في الاستقصاء. ففرقوا بين ما نزل ليلًا وما نزل نهارًا وما نزل صيفًا وما نزل شتاءً وما نزل في الخضر وما نزل في السفر.

<u>وأهم الأنواع التي بتدارسها العلماء في هذا المبحث:</u>

١. ما نزل بمكة.
٢. ما نزل بالمدينة.
٣. ما اختلف فيه.
٤. الآيات المكية في السور المدنية.
٥. الآيات المدنية في السور المكية.
٦. ما نزل بمكة وحكمه مدني.
٧. ما نزل بالمدينة وحكمه مكي.
٨. ما يشبه نزول المكي في المدني.
٩. ما يشبه نزول المدني في المكي.
١٠. ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة.
١١. ما حُمِلَ من المدينة إلى مكة.
١٢. ما نزل ليلًا وما نزل نهارًا.
١٣. ما نزل صيفًا وما نزل شتاءًا.
١٤. ما نزل في الحَضَر وما نزل في السفر.

ما يخص نقط "١-٢-٣"

أنه أقرب ما قيل في تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة أن المدني ٢٠ سورة والمختلف فيه ١٢ سورة وأن ما سوى ذلك مكي وهو ٨٢ سورة فيكون مجموع السور ٢٢٤ سورة.

٤. الآيات المكية في السور المدنية.. وهنا لا يقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية ولكنه وصف أغلب حسب أكثر آياتها.

.. مثل سورة الأنفال "آيات مكية في سورة مدنية" { **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ**}

٥. الآيات المدنية في السور المكية.. مثل سورة الأنعام.. قال ابن عباس نزلت بمكة جملة واحدة فهي مكية إلا ٣ آيات نزلت بالمدينة: { **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**}.

ومثل.. سورة الحج.. مكية إلا ٣ آيات نزلت بالمدينة { **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ** ...}

٦. ما نزل بمكة وحكمه مدني .. { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ** } فإنها نزلت بمكة يوم الفتح وهي مدينة لأنها نزلت بعد الهجرة والخطاب فيها عام.

٧. ما نزل بالمدينة وحكمه مكي.. مثل سورة الممتحنة.. فإنها نزلت بالمدينة فهي مدنية اعتبار المكان ولكن الخطاب في ثناياها توجه إلى مشركي أهل مكة. ومثل سورة التوبة نزلت بالمدينة والخطاب جاء لمشركي أهل مكة.

٨. ما يشبه نزول المكي في المدني.. ما كان في السور المدنية من آيات جاء أسلوبها في خصائصه وطابعه العام على نمط السور المكية.. مثل سورة الأنفال وهي مدنية فإن استعجال المشركين للعذاب كان بمكة.

٩. ما يشبه نزول المدني في المكي.. ما يقابل النوع السابق ويمثل في سورة النجم { **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**} وقال السيوطي فإن الفواحش كل ذنب فيه حد.

١٠. ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة.. مثل سورة الأغلب { **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**}

١١. ما حُمِلَ من المدينة إلى مكة.. مثل سورة التوبة.. حيث أمر رسول الله أبا بكر على الحج في العام التاسع فلما نزل صدر التوبة حملة رسول الله إلى علي بن أبي طالب ليلحق بأبي بكر.

١٢. ما نزل ليلًا وما نزل نهارًا.. أكثر القرآن نزل نهارًا، أما ما نزل بالليل فقد تتبعه القاسم الحسن واستخرج له أمثلة.. أواخر آل عمران .. أول سورة الفتح.

١٣. ما نزل صيفًا وما نزل شتاءًا.. ويمثل العلماء لما نزل صيفًا بآية الكلالة في آخر سورة النساء ومثل الآيات في سورة تبوك كانت في الصيف، أما ما نزل شتاءًا في سورة النور في حادثة الإفك.

فوائد العلم بالمكي والمدني أهمها:

أ) الاستعانة به في تفسير القرآن.

ب) تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله.

ت) الوقوف على السيرة النبوية من خلال آيات القرآن.

معرفة المكي والمدني وبيان الفرق بينهما:

اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين أساسيين:

(١) المنهج السماعي النقلي.

(٢) المنهج القياسي الاجتهادي.

أولًا: المنهج السمعي النقلي:

يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحي وشاهدوا نزوله.

ثانيًا: المنهج القياسي الاجتهادي:

يستند إلى خصائص المكي وخصائص المدني فإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني أو تتضمن شيئًا من حوادثه قالوا إنها مدنية، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي أو تتضمن شيئًا من حوادثه قالواه إنها

مكية: "ولذا قالوا أن كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية وكل سورة فيها فريضة أو حد مدينة".

ولا شك أن السماعي يعتمد على النقل.

والقياسي يعتمد على العقل.

"والعقل والنقل هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق العلمي"

الفرق بين المكي والمدني:

للعلماء في الفرق بين المكي والمدني ٣ آراء اصطلاحية كل رأي منها تبنى على اعتبار خاص.

- الأول: اعتبار زمن النزول.. فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة. والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة.
- الثاني: اعتبار مكان النزول.. فالمكي: ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات والحديبية والمدني: ما نزل بالمدينة وما جاورها كأحد وقباء وسلع.
- الثالث: اعتبار المخاطب، فالمكي: ما كان خطابًا لأهل مكة أو المدني: ما كان خطابًا لأهل المدينة.

مميزات المكي والمدني: من ناحية الضوابط:

- **ضوابط المكي ومميزاته الموضوعية:**

١. كل سورة فيها سجدة فيها مكية.
٢. كل سورة فيها لفظ (كلا) فهي مكية، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن، وذكرت ٣٣ مرة في ١٥ سورة.
٣. كل سورة فيها { يَا أَيُّهَا النَّاسُ} وليس فيها { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فهي مكية.. إلا سورة الحج ففي أواخرها { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا} ومع ذلك فإن كثيرًا من العلماء يرى أن هذه الآية مكية.
٤. كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية فهي مكية ما عدا سورة البقرة.
٥. كل سورة فيها آدم وأبليس فهي مكية ما عدا سورة البقرة.

٦. كل سورة تفتح بحروق التهجي كـ "ألم" و"الر" و"حم" وغيرهم فهي مكية ما عدا سورتي البقرة وآل عمران (الزهراوين) واختلفوا في سورة الرعد.

- **<u>من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب:</u>**

١. الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده.

٢. وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية.

٣. ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة هي يعتبروا عصير المكذبين قبلهم.

٤. قصر الفواصل مع قوة الألفاظ وإيجاز العبارة بما يصغ الآذان.

<u>ضوابط المدني ومميزاته الموضوعية:</u>

من ناحية الضوابط:

١. كل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية.

٢. كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت فهي مكية.

٣. كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية.

- **<u>من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب:</u>**

١. بيان العبادات والمعاملات والحدود ونظام الأسرة والمواريث والتشريع.

٢. مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ودعوتهم إلى الإسلام.

٣. الكشف عن سلوك المنافقين وتحليل تقسيتهم وبيان خطرهم على الدين.

٤. طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها.

المبحث السادس

"أسباب النزول"

<u>٧٥٪ فقط من الآيات نزلت بأسباب.</u>

س: هل هناك سبب لنزول كل آية من آيات القرآن؟

ج: لا.. إنما هناك بعض آيات معنية لها سبب نزول.

قد يتبع بين الصحابة أمر أو حادث خاص يحتاج إلى بيان شريعة الله فيه أو يلتبس عليهم أمر فيسألون رسول الله (ص) عنه لمعرفة حكم الإسلام فيه فيتنزل القرآن لذلك الحادث أو لهذا السؤال الطارئ "ومثل هذا يعرف بأسباب النزول".

- **عناية العلماء به:**

قد اعتنا الباحثون في علوم القرآن بمعرفة سبب النزول ولمسوا فيه شدة الحاجة إليه في تفسير القرآن فأفرده جماعة منهم بالتأليف ومن أشهرهم علي بن المديني" وهو شيخ البخاري ثم "الواحدي" بحذف أسانيده ولم يرد عليه شيئًا ثم شيخ الإسلام "ابن حجر" الذي ألف كتابًا في أسباب النزول أطلع السيوطي على جزء من مسورته ولم يتيسر له الوقوف عليه كاملًا. "لباب المنقول في أسباب النزول".

<u>ما يعتمد عليه في معرفة سبب النزول:</u>

- اعتمد العلماء في معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله (ص) أو عن الصحابة.. فلا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل أي (الصحابة والتابعين).

<u>تعريف السبب:</u>

سبب النزول بعد هذا التحقيق يكون قاصرًا على أمرين:

١. أن تحدث حادثة فيتنزل القرآن الكريم شأنها.
٢. أن يُسأل رسول الله (ص) عن شيء فيتنزل القرآن ببيان حكمها.

- ولا يعني هذا أن يلتمس الإنسان لكل أية سببًا فالقرآن لم يكن نزوله وفقًا على الحوادث أو على السؤال والاستفسار ، بل كان القرآن يتنزل ابتداءًا بعقائد الإيمان وواجبات الإسلام وشرائع الله في حياة الفرد والجماعة كما قال "الجعبري" (نزل القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداءً وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال).

ولذا يُعرف سبب النزول بما يأتي: هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال.

- ولذلك نجد في سورة الفيل أن تفسيرها من أن سبب نزول السورة قصة قدوم الحبشة ولكن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء.
- بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية.

<u>فوائد معرفة سبب النزول:</u>

لمعرفة سبب النزول فوائد أهمها:

١. بيان الحكمة التي دعت إلى تشريع حكم من الأحكام. (إدراك حكمة التشريع).
٢. تخصيص حكم ما نزل إن كان بصيغة العموم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ { **لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا ويُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ...**}
٣. تخصيص ما نزل فيه سبب النزول من العموم عند وجود ناسخ للعموم مثل { **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ..**} مع قوله: { **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**} فلأية الثانية نسخ عموم الآية الأولى ولكن هنا يجب إخراج من نزلت فيه الآية وهي السيدة عائشة وسائرًا أزواج النبي من هذا العموم لإنها ثبت لها الحكم بدلالة قطيعة فلا ينسخ إلا بدلالة قطعية ولا يجوز نسخه بدلالة ظنية.
٤. معرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معاني القرآن، وكشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات في تفسيرها ما لم يعرف سبب نزولها فيقول "الواحدي" لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

٥. ويوضع سبب النزول من نزلت فيه الآية حتى لا تُحمل على غيره بدافع الخصومة والتحامل.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

- إذا اتفق ما نزل مع السبب في العموم أو اتفق معه في الخصوص حُمِل العام على عمومه والخاص على خصوصه. ومثال الأول قوله تعالى: { **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ولا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ..**} ومثال الثالث: { **وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى**} فإنها نزلت في أبو بكر.
- أما إذا كان السبب خاصًا ونزلت الآية بصيغة العموم فقد اختلف الأصوليون أتكون العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟

١. ذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كآيات اللعان التي نزلت في قذف هلال بن أمية وزوجته.. فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر.

وهذا هو الرأي الراجح والأصح، وهو الذي يتفق مع عموم أحكام الشريعة والذي سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة.

٢. وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، فاللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص، ولابد من دليل آخر لغيره من الصور كالقياس.

صيغة سبب النزول:

صيغة سبب النزول إما أن تكون نصًا صريحًا في السببية، وإما أن تكون محتملة.

- فتكون نصًا صريحًا في السببية إذا قال الرؤى سبب نزول هذه الآية كذا..". كما إذا قال "حدث كذا" أو "سُئِل رسول الله (ص) عن كذا فنزلت الآية.." فهاتان صيغتان صريحتان في السببية.
- وتكون الصيغة محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام إذا قال الرؤى "نزلت هذه الآية في كذا.." فذلك يراد به تارة سبب النزول، ويراد به أنه داخل

في معنى الآية وكذلك إذا قال" أحسب هذه الآية نزلت في كذا" أو "ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في كذا.." أو "ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في كذا" فإن الرؤى بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب وهاتان الصيغتان تحتملان السببية ومثال الصيغة الأولى ما روى عن ابن عمر قال "أنزلت { **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**} في إتيان النساء في أديارهن ومثال الصيغة الثانية ما روى عن عبد الله بن الزبير في حادثة التحكيم فقال ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك { **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ..} فهذه الآية شارة نزلت في أسباب النزول وتاره أن ذلك داخل الآية.

المبحث الثامن

"جمع القرآن وترتيبه"

- الجمع الأول كان في عهد النبي (ص) وسببه حفظًا وكتابة.
- الجمع الثاني كان في عهد أبو بكر وسببه حفظ القرآن من الزوال سبب كثرة استشهاد القراء في حرب الردة.
- الجمع الثالث كان في عهد عثمان وسببه جمع الأمة على قراءة واحدة.

- يطلق جمع القرآن ويراد به عند العلماء أحد معنيين- الأول: جمعه بمعنى حفظه وجماع القرآن: حفاظه، وهذا المعنى هو الذي ورد في قوله تعالى في خطابه لبنيه وقد كان يحول شفتيه ولسانه بالقرآن: { **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ..**}ز
- الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته كله، مفرق الآيات والسور أو مرتب الآيات فقط، وكل سورة في صحيفة على حدة.

(أ) جمع القرآن بمعنى حفظه على عهد النبي (ص):

نزل القرآن في بضع وعشرين سنة في عبأ نزلت الآية المفردة، وربما نزلت آيات عدة إلى عشر وكلما نزلت آية حفظت في الصدور ووعتها القلوب والأمة العربية.

(ب) جمع القرآن بمعنى كتابته على عهد النبي (ص):

- اتخذ رسول الله (ص) كتابًا للوحي من أجلاء الصحابة "كعلي، ومعاوية، وأبي بن كعب وزيد بن ثابت" تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها ويرشدهم إلى موضعها من سورتها.

كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداءً من أنفسهم دون أن يأمرهم النبي فيخطونه في العب واللطاف والرقاع والأكتاف.

وكان الصحابة يعرضون على الرسول ما لديهم من القرآن حفظًا وكتابة.. ولم تكن هذه الكتابة في عهد الرسول (ص) مجتمعة في مصحف واحد.

وقبض الرسول (ص) والقرآن محفوظ في الصدور مكتوب في الصحف، مفرق الآيات والسور.

وهذا ما يسمى بالجمع الأول:

- **جمع القرآن في عهد أبي بكر:**

قام أبو بكر بأمر الإسلام بعد رسول الله (ص) وواجهته أحداث جسام في ارتداد جمهرة العرب وجهز الجيوش وكانت غزوة أهل اليمامة عام ١٢ هـ تضم عدد كبيرًا من الصحابة القراء فاستشهد في الغزوة ٧٠ قارئًا من الصحابة فهال عمر بن الخطاب ودخل علي أبي بكر وأشار عليه بجمع القرآن وكتابته خشية الضياع رفض أ[ي بكر في بادئ الأمر لا يفعل ما لم يفعله الرسول ولكنه شرح الله صدره وأرسل ليزيد بن ثابت لمكانته في القراءة والكتابة والفهم والعقل.

فأمر أبو بكر بجمع القرآن في مصحف واحد مرتب الآيات والسور وأن تكون كتابته غاية من التثبيت مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن فكان أبو بكر أول من جمع القرآن بهذه الصفة في مصحف.

وهذا هو ما يسمى بالجمع الثاني

<u>**جمع القرآن في عهد عثمان:**</u>

اتسعت الفتوحات الإسلامية وتفرق القراء في الأمصار.. فلما كانت غزوة أرمينية وأذربيجان من أهل العراق كان فيمن غزاهما حذيفة بن اليمان ورأى اختلافًا كثيرًا في وجوه القراءة وتكفيرًا لبعضهم البعض ففزع إلى عثمان فأمر بجمع كل المصاحف التي كانت عند أبي بكر وأرسل إلى حفصة فأرسلته إليه ثم أرسل إلى يزيد وعبد الله بن الزبير وغيرهم وأمرهم أن ينسخوها في مصاحف وأن يكتب بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم.

وأمر ما سواه من القرآن أن يحرق.

وهذا يدل على أن ما فعله عثمان قد أجمع عليه الصحابة كتبت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ليجتمع الناس على قراءة واحدة

ورد عثمان الصحف إلى حفصة. فإن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة ولو أوجب رسول الله (ص) على الأمة القراءة بها جميعًا لوجب نقل كل حرف منها نقلًا متواترًا تقوم به الحجة.

وهذا هو ما يسمى بالجمع الثالث وكان سنة ٢٥ هـ

<u>الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان:</u>

يتبين من النصوص أن جمع أبي بكر يختلف عن جمع عثمان في الباعث والكيفية.

فالباعث لدى أبي بكر هو لجمع القرآن خشية ذهابه لذهاب حَملته حين استحى القتل بالقراءة والباعث لدى عثمان هو كثرة الاختلاف في وجوه القراءة وكفر بعضهم بعض وكانت هذه أول حادثة تكفيرية.

وجمع أبو بكر للقرآن كان نقلًا لما كان مفرقًا في الأكتاف والرقا ع.

وجمع عثمان القرآن كان نسخًا له على حرف واحد من الحروف السبعة حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد.

وقد اختلف العلماء في عدد المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الآفاق.

أ) فقيل: كان عددها ٧ وأرسلت إلى مكة، والشام، والبصرة، والكوفة، واليمن، والبحرين والمدينة.

ب) وقيل: كان عددها ٤ العراقي، والشامي، والمصري، والمصحف الأمام.

ت) وقيل: كان عددها ٥ وذهب السيوطي إلى أ، هذا هو المشهور.

شُبَه مزودة:

هناك شُبَه يثيرها أهل الأهواء لتوهين الثقة بالقرآن والتشكيك في دقة جمعه، ونحن نورد أهمها ونرد عليها...

(١) قالوا أن الآثار قد دلت على أن القرآن قد سقط منه شيء لم يكتب في المصاحف التي بإيدينا اليوم..

ويجاب عن هذا بأن تذكير الرسول (ص) بأية أو آيات قد أُنسيها أو أسقطها نسيانًا لا يشكل في جمع القرآن.

وما ورد من أنه (ص) فسمى شيئًا كان يذكره فذلك إن صح فهو في غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التي أمر بتبليغها.

(٢) قالوا إن في القرآن ما ليس منه، واستدلوا على ذلك بما روى من أن ابن مسعود انكر ان المعوذتين من القرآن.

ويجاب عن هذا بأن ما نقل عن ابن مسعود لم يصح وهو مخالف لإجماع الأمة وعلى فرض صحته فالذي يُحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من البني (ص) فتوقف في أمرهما.

وإنكار ابن مسعود لا ينقض إجماع الأمة على أن المعوذتين من القرآن المتواتر.

٣. ويزعم نفر من غلاه الشيعة أن أبا بكر وعمر وعثمان حرفوا القرآن واسقطوا بعض آياته وصورة فحرفوا لفظ [أمة هي أربى من أمه] والأصل أئمة.. هي أربى من أئمتكم.

ويجاب عن ذلك بأن هذه الأقوال اباطيل لاستدلها ودعاوى لا بينة عليها والكلام فيها حمق وسفاهة.

<u>ترتيب الآيات والسور</u>

ترتيب الآيات

- القرآن سور وآيات منها القصار والطوال، والآية هي الجملة من كلام الله المندرجة في سورة من القرآن.
- والسورة: هي الجملة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع.

ترتيب الآيات في القرآن الكريم توفيقي عن رسول الله (ص) ولا شبهه في ذلك.

بعض العلماء الذين اجمعوا على ذلك منهم الزركشي في (البرهان) وأبو جعفر بن زبير في (مناسباته) وجزم السيوطي بذلك.

وقف عثمان في جمع القرآن عند موضع كل أية من سورتها في القرآن ولو كانت منسوجة الحكم لا يغيرها وهذا يدل على أن كتابتها بهذا الترتيب توفيقية.

وجاءت الأحاديث الدالة على فضل آيات من سور بعينها ويستلزم أن يكون ترتيبها توقيفيًا.

ترتيب السور

اختلف العلماء في ترتيب السور.

أ. فقيل: إنه توفيقي.. تولاه النبي (ص) كما أخبر به جبريل عن أمر ربه فكان القرآن على عهد النبي مرتب السور كما كان مرتب الآيات على هذا الترتيب الذي لدينا اليوم وهو ترتيب مصحف عثمان بالإجماع عليه.

ب. وقيل: إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة بدليل اختلاف مصاحفهم في الترتيب.. فمصحف على بن أبي طالب كان مرتبًا على النزول، أوله اقرأ ثم المدثر ثم ن والقلم ثم المزمل إلى آخر المكي والمدني.

وكان مصحف ابن مسعود وله البقرة ثم النساء ثم آل عمران.

وكان مصحف أبي بن كعب أوله الفاتحة ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران.

ج. وقيل: إن بعض السور ترتيبه توقيفي وبعضها اجتهادي باجتهاد الصحابة. حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور في عهد النبوة فقد ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفصل في حياته (ص).

وقال ابن حجر "ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توفيقيًا" واستدل بحديثي حذيفة النقض.

وقال ابن حجر أن هذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله (ص) وقال ويحتمل أن الذي كان مرتبًا حينئذٍ حزب المفصل خاصة بخلاف ما عداه.

وإذا ناقشنا الآراء الـ ٣ السابقة يتبين لنا..

أن الرأي الثاني الذي يرى أن ترتيب السور باجتهاد الصحابة لم يستند إلى دليل يعتمد عليه.

فاجتهاد بعض الصحابة في ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختيارًا منهم قبل أن يُجمع القرآن جمعًا مرتبًا. فلما جُمع في عهد عثمان بترتيب الآيات والسور على حرف واحد واجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم ولو كان الترتيب اجتهاديًا لتمسكوا بها.

وحديث سور في الأنفال والتوبة الذي ردى عن ابن عباس وفيه تشكيك في إثبات السملة في أوائل السور.. قال فيه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على بمسند الإمام أحمد بن حنبل إنه حديث لا أصل له.

(وغاية ما فيه أنه يدل على عدم الترتيب بين هاتين السورتين فقط).

أما الرأي الثالث الذي يرى أن بعض السور ترتيبها توفيقي وبعضها اجتهادي.

فإن أدلته ترتكز على ذكر النصوص الدالة على ما هو توفيقي أما القسم الاجتهادي فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادي.

وبهذا يترجح أن ترتيب السور توفيقي كترتيب الآيات:

قال أبو بكر الأنباري.. فمن قدم سورة أو آخرها فقد أفسد نظم القرآن".

وقال الكرماني في البرهان "ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ".

ومال السيوطي إلى ما ذهب إليه البيهقي فقال "كان القرآن على عهد النبي مرتبأ سورة وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال والتوبة لحديث عثمان".

آخر ما نزل من الآيات **{وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّه}** فأمر جبريل النبي (ص) أن يضعها بين آيتين الربا والدين.

<u>سور القرآن وآياته</u>

سور القرآن أقسام ٤ ..... ١- الطوال ٢- المئين ٣- والمثاني ٤- المفصل.

أرجع آراء فيها..

(١) الطوال... ٧.. البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، والسابعة قيل أنها الأنفال والتوبة معًا لعدم الفصل بينهما بالبسملة وقيل هي يونس.

(٢) المئون.. وهي التي تزيد عدد آياتها على ١٠٠ أو تقاربها.

(٣) المثاني.. وهي التي تليها في عدد الآيات وسميت بذلك لأنها تُثنى في القراءة وتكرر أكثر من الطوال والمئين.

(٤) المفصل.. قيل: من أول سورة "ق"، وقيل: من أول "الحجرات" وقيل: غير ذلك- وأقسامه ٣- طواله- وأوساطه- وقصاره.

فطواله: من "ق" أو "الحجرات" إلى "عم" أو "البروج".

وأوساطه: من "عم" أو "البروج" إلى "الضحى" أو إلى "البينة".

وقصاره: من "الضحى" أو "البينة" إلى آخر القرآن" "على خلاف في ذلك".

وتسميته بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة

تعداد السور: ١١٤ سورة، وقيل: ١٣ يجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة.

تعداد الآيات: ٦٢٠٠ آية، واختلفوا فيها زاد عن ذلك.

أطول الآيات: آية الدّيْن.

أطول السور: سورة البقرة.

هذه التجزئة تسير على الناس الحفظ

الرسم العثماني:

اتبع زيد ابن ثابت والثلاثة الفرنسيون الذين معه طريقة خاصة في الكتابة ارتضاها لهم عثمان ويسمى العلماء هذه الطريقة "بالرسم العثماني للمصحف" نسبة إليه *واختلف العلماء في حكمه*.

(١) فذهب بعضهم إلى أن هذا الرسم العثماني للقرآن توقيفي يجب الأخذ به في كتابة القرآن. ونسبوا التوفيق فيه إلى النبي (ص). والتمسوا لذلك الرسم أسرارًا تجعل للرسم العثماني دلالة على معان خفية دقيقة كزيادة الياء في أيد { **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ** } وذلك للإيمان إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء وأنها لا تشبه قوة على حد القاعدة المشهورة وهي (زيادة المبني تدل على زيادة المعنى).

وهذا الرأي لم يرد فيه شيء عن رسول الله (ص) حتى يكون الرسم توقيفيًا

(٢) ذهب كثير من العلماء إلى أن الرسم العثماني ليس توقيفيًا عن النبي (ص) ولكنه اصطلاح ارتضاه عثمان وتلقته الأمة بالقبول فيجيب الالتزام والأخذ به ولا تجوز مخالفته. فقال الإمام أحمد (تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك).

(٣) ذهب جماعة إلى أن الرسم العثماني اصطلاح ولا مانع من مخالفته إذ اصطلح الناس على رسم خاص للإملاء وأصبح شانعًا بينهم فقال (القاضي أبو بكر الباقلاني) في كتابة (الانتصار) وأما الكتابة فلم يُعرض الله على الأمة فيها شيئًا، ولم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسمًا بعينه دون غيره وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن الرسم وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص ومحدد لا يجوز تجاوره ولا في السنة وفي في إجماع الأمة "ومن هذا الرأي يدعو بعض الناس اليوم إلى كتابة القرآن وفق القواعد الإملائية الشائعة المصطلح يليها التسهيل الدراسية.

"والذي يراه د. مناع القطان" أن الرأي الثاني هو الرأي الراجح وأنه يجب كتابة القرآن بالرسم العثماني المعصور في مصحف عثمان".

فهو الرسم الاصطلاحي الذي توارثه الأمة منذ عهد عثمان رضي الله عنه" والحفاظ عليه ضمان قوي لصيانة القرآن من التغير والتبديل في حروفه.

ولو أبيح كنايته بالاصطلاح كما ذكر القاضي أبو بكر الباقلاني لأدى إلى تغير خط المصحف من عصر لآخر.

فاختلاف الخطوط الذي يقصده القاضي أبو بكر شيء والرسم الإملائي شيء آخر.

فاختلاف الخط تغير في صورة الحرف لا في رسم الكلمة.

وحجه تيسير القراءة "الدارسين لا تكون مبررًا للتغير الذي يؤدي إلى التهاون في تحري الدقة بكتابة القرآن".

قال البيهقي في شعب الإيمان "من يكتب مصحفًا فينبغي أن يحافظ على أمجاد الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم منه ولا يغير مما كتبوه فإنهم كانوا أكثر علمًا وأصدق قلبًا ولسانًا وأعظم أمانة من فلا ينبغي أن تظن بأنفسنا، استدراكًا عليهم".

تحسين الرسم العثماني

كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل "التشكيل" اعتمادًا على السليقة العربية السليمة التي لا تحتاج إلى الشكل بالحركات ولا إلى الإعجاز بالنقط.

"واختلف العلماء في أول جهد بذل في ذلك السبيل".

فيرى كثير منهم أن أول من فعل ذلك هو "أبو الأسود الدولي" الذي يُنسب إليه وضع ضوابط للعربية بأمر من علي بن أبي طالب.

ويروي في ذلك أنه سمع قارئًا يقول { **أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**} فقرأها بجر اللام "رَسُولِه" ففزع هذا اللحن أبا الأسود ثم ذهب إلى زياد والد البصرة وقال له. قد أجبتك إلى ما سألت بجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله فتباطئ في الجواب حتى راعه هذا الحدث وهنا جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحروف وهكذا ....

ويذكر السيوطي (في الإتقان) أن أبا الأسود أول من فعل ذلك بأمر من عبد الملك بن مروان لا بأمر زياد حيث ظل الناس يقرأون في مصحف عثمان بضعًا وفي سنة حتى خلافة عبد الملك حين كثرت التصحيفات في العراق ففكر الولاه في النقط والتشكيل.

وهناك روايات أخرى تسبب إلى الحسن البصري، ويحي بن يعمر، نصر بن عاصم الليثي، وأبو الأسود الدولي: هو الذي اشتهر منه ذلك.

وربما كان للآخرين جهود أخرى بذلت في تحسين الرسم وتسييره".

"وقد وصلت العناية بتحسين رسم المصحف اليوم ذروتها في الخط العربي"

<u>الفواصل ورؤوس الآي</u>

تميز القرآن الكريم بمنهج فريد في فواصله ورؤوس آياته ونعني بالفاصلة ← الكلام المنفصل مما بعده، وقد يكون رأس أية وقد لا يكون.

وتقع الفاصلة عند نهاية المقطع الخطابي.. "سميت بذلك لأن الكلام ينفصل عندها".

ونعني برأس الآية: نهايتها التي توضع بعدها علامة الفصل بين آية وآية ولهذا قالوا (كل رأس أية فاصلة وليس كل فاصلة رأس أيه).

"فالفاصلة تعم النوعين وتجمع الضربين" لأن رأس كل آية يفصل بينها وبين ما بعدها.

ومثل هذا قد يسمى في كلام الناس سجعًا في علم البديع وفرقوا بين الفواصل والسجع بأن الفواصل في القرآن: هي التي تتبع المعاني ولا تكون مقصورة لذاتها.

أما السجع: فهو الذي يقصد في نفسه ثم يحيل المعنى عليه لأنه موالاة الكلام على وزن واحد "وهكذا ما قاله القاضي أبو بكر الباقلاني".

لأن مجيئه على صورته لا يقتضي كونه هو.. لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي بالسجع.

"والذي يراه د. مناع القطان أنه إذا كان المراد بالسجع مراعاة موالاة الكلام على وزن واحد دون مراعاة المعنى فإن هذا تكلف ممقوت في كلام الناس فضلًا عن كلام الله.

أما إذا روعيت المعاني وجاء الاتفاق في الوزن تابعًا لها دون تكلف وهذا ضرب من ضروب البلاغة قد يأتي في القرآن وإذا سمينا هذا في القرآن بالفواصل دون السجع فذلك لتلافي إطلاق السجع على القرآن بالمعنى الأول".

الفواصل في القرآن الكريم أنواع منها

أ) فواصل متماثلة كقوله: { **وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ**} وقوله: { **وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ**} وقوله: { **فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ**}..

ب) فواصل متقاربة في الحروف .. كقوله { **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** } للتقارب بين الميم والنون ف يالمقطع، وقوله { **ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**} بتقارب الدال والباء.

ت) المتوازي.. وهو أن تنفق الكلمتان في الوزن وحروف السجع كقوله { **فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ ...**}

ث) المتوازن.. وهو أن يراعي في مقاطع الكلام الوزن فقط كقوله { **وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**}.

وقد يراعي في الفواصل (زيادة حرف) { **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**} إلحاق ألف على النون لتساوي المقاطع وتناسب نهايات الفواصل أو (حذف حرف) { **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**} بحذف الياء لأن مقاطع الفواصل السابقة واللاحقة بالراء أو (تأخير ما حقه التقديم لنكته بلاغية أخرى كتشويق النفس إلى الفاعل في قوله { **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى**} لأن الأصل في الكلام أن يتصل الفعل بفاعله "يؤخر المفعول لكن آخر الفاعل هنا وهو (موسى) للنكتة البلاغية السابقة على رعاية الفاصلة.

المبحث الثاني عشر

"الفرق بين الحكم والمتشابه"

أنزل الله الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا فرسم للخلق العقيدة السليمة والمادي القديمة في آيات بينات واضحة للعلم وذلك فضل من الله على الناس حيث أحكم لهم أصول الدين تسلم لهم عقائدهم ويتبين لهم الصراط المستقيم.. وتلك الآيات هي أم الكتاب التي لا يقع الاختلاف في فهمها سلامة لوحدة الآمة وصيانة لكيانها { **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**}.

وقد تألت هذه الأصول البينية في أكثر من موضع بالقرآن مع اختلاف اللفظ والعبارة والأسلوب إلا أن معناها يكون واحدًا.. أما عدا تلك الأصول من فروع الدين فإن في آياتها من العموم والاشتباه ما يفح الدجال أمام المجتهدين في العلم.

<u>الإحكام العام والتشابهه العام</u>

المحكم لفه: مأخوذ من حُكِمَت الدابة واحكِمت .. معن مُنِعَت، والحكم هو الفصل بين الشيئين.. فالحاكم يمنع الظالم ويفصل بين الخصيصين.

وأحكام الشيء: إتقانه. والمحكم: المتقن.

فإحكام الكلام: إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره، والرشد في الفي في أوامره والمحكم منه: ما كان كذلك.

وقد وصف الله القرآن كله بأنه محكم على هذا المعنى فقال: { **الّر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**} فالقرآن كله محكم.. أي أنه كلام متقن فصيح يميز بين الحق والباطل والصدق والكذب.

وهذا هو الإحكام العام

والمتشابهة لفه: مأخوذ من التشابهه– وهو أن يشبهه أحد الشيئين الآخر.

والشبهه، هي ألا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عينًا كأن أو معنى قال تعالى { وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} أي يشبهه بعضه بعضًا لونًا لا طعمًا وحقيقة وقيل متماثل في الكلام والجودة.

متشابهة الكلام: هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضًا وقد وصف الله تعالى القرآن كله بإنه متشابهه على هذا المعنى كقوله { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ} فالقرآن كله متشابهه، أي أنه يشبهه بعضه بعضًا في الكمال والجودة ويصدق بعضه بعضًا في المعنى ويماثله.

وهذا هو التشابه العام

وكل من المحكم والمتشابه بمعناه المطلق المتقدم لا ينافي الآخر.. فالقرآن كله متقن (منكم) وهو متماثل يصدق بعضه بعضًا.. فإن الكلام المحكم المتقن تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه فإذا أمر القرن بأمر لم يأمر بنقيضه { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا}.

<u>الإحكام الخاص والتشابه الخاص:</u>

وهناك إحكام خاص وتشابه خاص ذكره الله في قوله: { هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ومَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللَّهُ والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} وفي معناهما وقع الاختلاف على أقوال أهمها:

أ) المحكم: ما عُرِفَ المراد منه. والمتشابهه: ما استأثر الله بعلمه.

ب) المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا. والمتشابهه: ما احتمل أوجهًا.

ت) المحكم: ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان والمتشابهه: ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان يرده إلى غيره.

ويمثلون للمحكم في القرآن بناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده.

ويمثلون للمتشابهه بمنسوخه وكيفيات أسماء الله وصفاته الثاني في قوله: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}.

{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} وقوله { يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} وأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم وعلم الساعة.

الاختلاف في معرفة المتشابهة

وكما وقع الاختلاف في معنى كل من المحكم والمتشابهه الخاصين وقع الاختلاف في إمكان معرفة المتشابهة.. ومنشأ هذا الاختلاف اختلافهم في الوقف في قولهم { والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} هل هو مبتدأ خبره (يقولون) والواو للاستئذان .. والوقف على قوله { ومَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ} أو هو معطوف (ويقولون) حال، والوقف على قوله { والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}.

فذهب أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من التابعين إلى الأول (الاستئناف) مستدلين بمثل ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ "وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به".

وبقراءة ابن مسعود "وإن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به".

"وبما دلت عليه الآية من ذم متبعي المتشابهة ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة".

وذهب طائفة على راسهم مجاهد إلى الرأي الثاني (العطف) فقد أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قوله تعالى: {الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} قال (يعلمون تأويله ويقولون أمنا به).

واختار هذا القول النووي. فقال في شرح مسلم: أنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عبارة عن ما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته.

التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل:

بالرجوع إلى معنى (التأويل) يتبين أنه لا منافاه بين الرأيين، فإن لفظ التأويل ورد لـ ٣ معانٍ:

(١) صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو الاصطلاح أكثر المتأخرين.

(٢) التأويل بمعنى التفسير فهو الكلام الذي يفسر به اللفظ حتى يُفهم معناه.

(٣) التأويل: هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام.

فاللذين يقولون بالوقف على قوله: { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ} ويجعلون {الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ} استئنافًا إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث.. أي الحقيقة التي يؤول إليها الكلام.. فحقيقة ذات الله وكيفية أسمائه وصفاته لا يعلمها إلا الله.

والذين يقولون بالوقف على قوله {الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ} على أن الواو للعطف وليست للاستئناف إنما عنوان بذلك التأويل بالمعنى الثالث– أي التفسير ومجاهد إمام المفسرين.

قال الثوري فيه. إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك فيه..

وبهذا يتضح أنه لا منافاة بين المذهبين في النهاية، وإنما الأمر إلى الاختلاف في معنى التأويل.

ففي القرآن ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما يُعلمه في الدنيا ولكن الحقيقة ليست كالحقيقة.

ولهذا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى}.

"قالوا: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعه".

وكذلك الشأن بالنسبة إلى إخبار الله عن اليوم الآخر ففيها ألفاظ تشبهه معانيها إلا أن لحقيقة غير الحقيقة ففي الآخره ميزان وجنه ونار وذلك ما تعلمه ونؤمن به وتدرك أن الغائب أعظم من الشاهد وما في الآخرة يمتاز عما في الدنيا، ولكن حقيقة هذا الامتياز غير معلومه لنا وهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله.

<u>التأويل المذموم:</u>

وهو بمعنى.. صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به:

وإنما لجأ إليه الكثير من المتأخرين مبالغة منهم في تنزيه الله تعالى عن مماثلته للمخلوقين كما يزعمون "وهذا زعم باطل أوقعهم في مثل ما هربوا منه أو أشد..

فهم حين يؤولون اليد بالقدرة مثلًا إنما قصدوا الفرار من أن يثبتوا للخالق يدًا لأن للمخلوقين يدًّا فاثبته عليهم لفظ اليد فأولوها بالقدرة "وذلك تناقض منهم".

فلا يجوز أن يقال: إن هذا اللفظ مؤول بمعنى أنه مصروف عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح.

"وما جاء عن أئمة السلف وغيرهم من ذم للمتأولين إنا هو لمثل هؤلاء الذين تأولوا ما يثبته عليهم معناه على غير تأويله وإن كان لا يشتبه على غيرهم".

المبحث الثالث

العام والخاص

تعريف العام وصيغ الهموم.

العام: هو اللفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر. انتقد الآمدي هذا التعريف وقد اختلف العلماء في معنى العموم، أنه في اللغة صيغة موضوعة له خاصة به تدل عليه. أم لا؟

فذهب أكثر العلماء إلى أن هناك صيغًا وضعت في اللغة للدلالة حقيقة على العموم وتستعمل مجازًا فيما عداه واستدلوا على ذلك بأدلة نصية واجتماعية ومعنوية.

أ) فمن الأدلة النصية قوله تغالب: { **وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي**} ووجه الدلالة أن نوح توجه بالنداء تمسكًا منه بقوله: { **قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ**} وأقره الله على هذا النداء وأجابه بما دل على أنه ليس من أجله فلولا أن إضافة الأهل إلى نوح للعموم لما صح ذلك.

ومنها قول تعالى: { **إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ**} ووجه الدلالة أن إبراهيم فهم من قول الملائكة { **أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ** } العموم– حيث ذكر "لوطًا" فأقره الملائكة على ذلك وأجابوه بتخصيص لوط، وأهله بالاستثناء امرأته من الناجين.. وذلك كله يدل على العموم.

ب)ومن الأدلة الاجتماعية إجماع الصحابة على إجراء قوله تعالى: { **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**} وقوله: { **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**} وكل ذلك على العموم في كل زان وسارق.

ت)ومن الأدلة المعنوية، أن العموم يفهم من استعمال ألفاظه، ولو لم تكن هذه الألفاظ موضوعه له لما تبادر إلى الذهن فهمه منها.. كألفاظ الشرط والاستفهام والموصول.

- وبناء على هذا فالعموم صيغة التي تدل عليه.

منها "كل" كقوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ} ومثلها "جميع" ومنها المعرف بـ "الـ" التي ليست للعهد كقوله {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} ومنها النكرة في سياق النفي والنهي كقوله {فَلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدَالَ فِي الحَجِّ} ومنها "الذي والتي" وفروعها كقوله {والَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا}.

وأسماء الشرط كقوله تعالى: {فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ ...} للعموم في العاقل ومنها. اسم الجنس المضاف إلى معرفة كقوله {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ}.

أقسام العام:

والعام على ٣ أقسام:

(١) الباقي على عمومه. ومثاله عزيز، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص وذكر الزركشي في البرهان أنه كثير في القرآن وأورد منه قوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} فلا خصوص فيها.

(٢) العام المراد به الخصوص كقوله {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} فالمراد بالناس الأولى نعيم بن مسعود، والمراد بالناس الثانية أبو سفيان لا العموم في كل منها ويدل على هذا قوله {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ} فوقعت الإشارة بقوله "ذلكم" إلى واحد بعينه.

(٣) العام المخصوص- وأمثلته في القرآن كثيرة. منه قوله: {وكُلُوا واشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ}

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص:

(١) أن العام المراد به الخصوص: لا يراد شموله لجميع الأفراد من أول الأمر لا من جهة تناول اللفظ، ولا من جهة الحكم، بل هو ذو أفراد استعمل في فرد واحد منها أو أكثر.

أما العام المخصوص: فأريد عموله وشموله لجميع الأفراد منه جهة تناول اللفظ لا من جهة الحكم.

(٢) الأول مجاز قطعًا، لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلي واستعماله في بعض أفراده بخلاف الثاني والأصح فيه أنه حقيقة وعليه أكثر الشافعية وكثير من الحنفية وجميع الحنابلة.

(٣) وقريبة الأول عقلية غالبًا ولا تنفك عنه، وقرينه الثاني لفظية وقد تنفك.

تعريف الخاص وبيان التخصيص:

الخاص: يقابل العام.. فهو الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر.

والتخصيص: هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام.

والمخصص إما متصل.. وهو الذي لم يفصل منه بين العام والمخصص له بفاصل وإما منفصل.. وهو بخلافه.. والمتصل ٥ أحدها (١) الاستثناء كقوله { **والَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ولا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا**}. (٢) الصفة كقوله { **ورَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ**} فقوله: { **اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ**} صفة لـ (نسائكم).

(٣) الشرط كقوله: {**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الوَصِيَّةُ** } فقوله (إن ترك خيرًا) أي مالًا. شرط في الوصية.

(٤) الغاية كقوله { **ولا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ**}.

(٥) بدل البعض من الكل كقوله { **ولِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**} فقوله (من استطاع) بدل من "الناس" فيكون وجوب الحج خاصًا بالمستطيع.

المخصص المنفصل:

ما كان في موضع آخر من آية أو حديث أو إجماع أو قياس، فما خص بالقرآن كقوله { **والْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**} فهو عام في كل مطلقة حاملًا كانت أو غير حامل، مدخولًا بها أو غير مدخول بها.. خص بقوله { **وأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**}.

وما خص بالحديث كقوله: { **وأَحَلَّ اللَّهُ البَيْعَ وحَرَّمَ الرِّبَا**} خص من البيع البيوع الفاسدة التي ذكرت في الحديث. (نهى رسول الله عن عسب الفحل).

وما خص بالإجماع آية المواريث { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ} خص منها بالإجماع الرقيق لأن الرق مانع من الإرث.

وما خص بالقياس آية الزنا { الزَّانِيَةُ والزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ} خص منها العبد بالقياس على الأمة.

<u>تخصيص السُنة بالقرآن:</u>

وقد يخصص القرآن السنة، ويمثلون لذلك بما روى عن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله (ص) "ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميت" فهذا الحديث خص بقوله تعالى: { ومِنْ أَصْوَافِهَا وأَوْبَارِهَا وأَشْعَارِهَا أَثَاثًا ومَتَاعًا إِلَى حِينٍ}.

صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقى.

اختلف العلماء في صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقى.

والمختار عند المحققين صحة الاحتجاج به فيما وراء صور التخصيص وأنكر الاحتجاج به عيسى بن أبل وأبو ثور مطلقًا.. وقال البلحي: إن خص بدليل متصل كالشرط والصفة والاستثناء فهو حجة، وإن خص بدليل منفصل فليس بحجة.

واستدلوا على ذلك نادله. إجماعية وأدلة عقلية.

أ) فمن أدلة الإجماع: أن فاطمة احتجت على أبي بكر في ميراثها من أبيها بعموم قوله { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ} مع أنه مخصص بالكافي والقاتل ولم ينكر أحد من الصحابة صحة احتجاجها مع ظهوره وشهرته فكل إجماعًا على صحة احتجاجها. ولذا عدل أبو بكر في حرمانها إلى الاحتجاج بقوله (ص) نحن معاشر الأنبياء لا نورث.. ما تركناه صدقة".

ب)ومن الأدلة العقلية: أن العام قبل التخصيص حُجه في كل واحد من أقسامه إجماعًا. والأصل بقاء ما كان قبل التخصيص بعده، إلا أن يوجد له معارض.

فيظل العام بعد التخصيص حُجة فيما بقى:

<u>ما يشمله الخطاب:</u>

اختلف في الخطاب الخاص بالرسول (ص) كقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ولا تُطِعِ الكَافِرِينَ والْمُنَافِقِينَ} فهل يشمل الأمة أم لا يشملها؟

أ) ذهب قوم إلى أنه يشملها باعتباره قدوة لها.

ب)وذهب آخرون إلى أنه لا يشملها لأن الصيغة تدل على اختصاصه بها.

واختلفوا أيضًا في الخطاب من الله تعالى بـ "يا أيها الناس" كقوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ} هل يشمل الرسول أم لا؟ والصحيح في ذلك أنه يشمله لعمومه وإن كان الخطاب قد ورد على لسانه ليبلغ غيره وقد فصل بعضهم فقال: إن اقترن الخطاب بـ "قل" لم يشمله لأن ظاهره البلاغ كقوله { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}.

وما ورد في الخطاب مضافًا إلى الناس أو المؤمنين كقوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى ...}.

فالمختار في الأول.. أنه يشمل الكافر والعبد والأنثى.

والمختار في الثالث.. أنه يشمل الأخيرين فقط لمراعاة التكليف بالسنة إلى الجميع.

وخروج العبد عن بعض الأحكام كوجوب الحج والجهاد إنما هو لأمر عارض كفقرة واشتغاله بخدمة سيده.

ومتى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير. وأكثر خطاب الله تعالى في القرآن بلفظ التذكير. والنساء يدخلن في جملته.

وقد يأتي ذكرهن بلفظ مفرد تبينًا وإيضاحًا.

وهذا لا يمنع دخلوهن في اللفظ العام الصالح لهن، كما جاء في قوله تعالى { ومَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ}.

المبحث الرابع عشر

الناسخ والمنسوخ

تتنزل التشريعات السماوية من الله تعالى على رسله لإصلاح الناس في العقيدة والعبادة والمعاملة وحيث كانت العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية والربوبية.

أما العبادات والمعاملات فإنها تتفق في الأسس العامة التي تهدف إلى تهذيب النفس والمحافظة على سلامة المجتمع وربطه برباط التعاون والإخاء، إلا أن مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها وما يلائم قومًا في عصر قد لا يلائمهم في آخر فلا غرابة في أن يرفع تشريع سأخر مراعاة لمصلحة العباد من علم سابق بالأول والآخر.

تعريف الناسخ وشروطه:

والنسخ لغه: يطلق بمعنى الإزالة.

ومنه يقال: نسخت ألتمس الظل أي إزالته.

ويطلق أيضًا بمعنى نقل الشيء من موضع إلى موضع ومنه نسخت الكتاب: إذا نقلت ما فيه وفي القرآن { إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف.

والنسخ في الاصطلاح: رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي.. فخرج بالحكم رفع البراءة الأصلية وخرج بقولنا (بخطاب شرعي) رفع الحكم بموت أو جنون أو إجماع أو قياس.

تعريف الناس: كقوله { مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} ويطلق الناسخ على الله وعلى الآية وما يعرف به النسخ فيقال.. هذه الآية ناسخة لآية كذا وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر.

تعريف المنسوخ: هو الحكم المرتفع ويشترط في النسخ:

(١) أن يكون الحكم المنسوخ شرعيًا.

(٢) أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطابًا شرعيًا متراخيًا عن الخطاب المنسوخ حكمه.

(٣) وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيدًا بوقت معين، وإلا فالتكم ينتهي بانتهاء وقته ولا يعد هذا نسخًا.

فما قال مكي بن أبي طالب: "ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب شعرًا بالتوقيت والغاية مثل قوله في سورة البقرة { فَاعْفُوا واصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} محكم غير منسوخ لأنه مؤجل بأجل والمؤجل بأجل لا نسخ فيه.

ما يقع فيه النسخ:

من هنا بعلم أن النسخ لا يكون إلا في الأوامر والنواهي سواء أكانت صريحية في الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر أو النهي على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التي ترجع إلى ذات الله وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر أو الأدب الخلقية أو أصول العبادات والمعاملات لأن الشرائع لا تخلو عن هذه الأصول وهي متفقة فيها. "كما لا يدخل النسخ الخبر الصريح الذي ليس بمعنى الطلب كالوعد والوعيد".

ما يعرف به النسخ وأهميته:

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين حتى لا يختلط الأحكام ووردت أثار كثيرة في الحث على معرفته.

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ طرق:

١. النقل الصريح عن النبي (ص) أو عن صحابي "كحديث القبور وزيارتها".
٢. إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ.
٣. معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ.

ولا يعتمد في النسخ على الاجتهاد، أو قول المفسرين، أو التعارض بين الأدلة ظاهرًا، أو تأخر إسلام أحد الداويين.

الآراء في النسخ وأدلة ثبوته:

والناس في النسخ على ٤ أقسام:

(١) اليهود: وهؤلاء ينكرونه لأنه يستلزم في زعمهم البداء وهو الظهور بعد الخلفاء فيعنون أن النسخ إما أن يكون لغير حكمة وهذا ثبت ومحال عند الله وإما أن يكون لحكمة ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل وهذا أيضًا محال لأنه يستلزم البداء وسبق الجهل. "واليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها".

(٢) الروافض: وهؤلاء غلوا في إثبات النسخ وتوسعوا فيه وأجازوا البداء على الله تعالى فهم مع اليهود على طرفي نقيض ما استدلوا على ذلك بأقوال نسبوها إلى علي بن أبي طالب زورًا وبهتانًا بقوله { **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ**} على معنى أنه يظهر له المحور والإثبات وذلك ضلال وتحريف للقرآن.

(٣) أبو مسلم الأصفهاني: وهو يجوز النسخ عقلًا ويمنع وقوعه شرعًا وقيل يمنعه في القرآن خاصة محتجًا بقوله { **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**}.

(٤) وجمهور العلماء: على جواز النسخ عقلًا ووقوعه مشرعًا لأدلة:

أ) لأن أفعال الله لا تعلل بالأغراض، فله أن يأمر بالشيء في وقت وينسخه بالنهي عنه في وقت.. وهو أعلم بمصالح العباد.

ب) ولأن نصوص الكتاب والسنة دالة على جواز النسخ ووقوعه:

١. قال تعالى: { **وإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ**}.

وقال تعالى: { **مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**}.

٢. حديث ابن عباس عن أبي بن كعب.

<u>أقسام النسخ:</u>

والنسخ ٤ أقسام:

القسم الأول: نسخ القرآن بالقرآن.

القسم الثاني: نسخ القرآن بالسنة وهذا ينقسم إلى نوعان:

أ) نسخ القرآن بالسنة الآحادية.. والجمهور على عدم جوازه لأن القرآن متواتر يفيد اليقين والآحادي مطنون ولا يصلح رفع المعلوم بالمظنون.

ب) نسخ القرآن بالسنة المتواترة.. وقد أحازه مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية لأن الكل وحى قال تعالى: { وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} وقال تعالى: { وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} والنسخ نوع من البيان– ومنعه الشافعي وأهل الظاهر وأحمد في الرواية الأخرى لقوله تعالى: { مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} والسنة ليست خيرًا من القرآن ولا مثله.

القسم الثالث: نسخ السنة بالقرآن. ويجيزه الجهور ومنح هذا القسم الشافعي في إحدى روايتيه وقال حيث وقع بالسنة فمعها قرآن أو بالقرآن فمعه سنة عاضده تبين توافق الكتاب والسنة.

القسم الرابع: نسخ السنة بالسنة وهذا ينقسم إلى ٤ أنواع:

أ) نسخ متواترة بمتواترة. جائزة.

ب) ونسخ آحاد بأحاد. جائزة.

ت) ونسخ آحاد بمتواترة جائزة.

ث) ونسخ متواترة بآحاد. أما هذا النوع الرابع ففيه الخلاف الوارد في نسخ القرآن بالسنة الآحادية والجمهور على عدم جوازه.

"أما نسخ كل من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه"

<u>**أنواع النسخ في القرآن:**</u>

والنسخ في القرآن ٣ أنواع:

النوع الأول: نسخ التلاوة والحكم معًا.

النوع الثاني: نسخ الحكم وبقاء التلاوة.. ومثاله: حكم آية العدة بالحول مع بقاء تلاوتها.. وهذا النوع هو الذي ألقت فيه الكتب وذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة.. وقد يقال ...

ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟ الجواب أتى من وجهين:

(١) أن القرآن يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به فإنه يتلى كذلك لكونه كلام الله فيتاب عليه فتركت التلاوة لهذه الحكمة.

(٢) أن النسخ غالبًا يكون للتخفيف. فأبقت التلاوة تذكيرًا بالنعمة حتى رفع المشقة.

"وأما حكمة النسخ قبل العمل كالصدقة عن البخوي فيثاب علم الإيمان به وعلى نية طاعة الأمر".

النوع الثالث: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم. ومثاله.. أية الرجم.

حكمة النسخ:

١. مراعاة مصالح العباد.

٢. تطور التشريع إلى مرتبة الكمال.

٣. ابتلاء المكلف واختباره بالامتثال وعدمه.

٤. إرادة الخير للأمة والتيسير عليها.

النسخ إلى بدل وإلى غير بدل:

والنسخ يكون إلى بدل وإلى غير بدل.

والنسخ إلى بدل: إما إلى بدل أخف، وإما إلى بدل مماثل، وإما إلى بدل أثقل:

(١) فالنسخ إلى غير بدل: كنسخ الصدقة بين يدي نجوى رسول الله (ص).

وأنكر بعض المعتزلة والظاهرية ذلك.. وقالوا: إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعًا حيث أفادت أية ما ننسخ من آية- أنه لابد أن يؤتي مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر خير منه.

ويجاب على ذلك- باب الله تعالى إذا نسخ حكم الآية بغير بدل فإن هذا يكون بمقتضى حكمته ولمصلحة عباده.

(٣) والنسخ إلى بدل أخف: يمثلون له بقوله تعالى: { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} فهي ناسخة لقوله {كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}.

(٣) النسخ إلى بدل مماثل: كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة.

(٤) النسخ إلى بدل أثقل كنسخ الحبس في البيوت في قوله { **واللاَّتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البُيُوتِ**} بالجلد في قوله: { **الزَّانِيَةُ والزَّانِي فَاجْلِدُوا**}

شبهه النسخ:

وللناسخ والمنسوخ أمثلة كثيرة، إلا أن العلماء في هذا:

١. منهم المكثر الذي اشتبه عليه الأمر فأدخل في النسخ ما ليس منه.

٢. ومنهم المتحري الذي يعتمد على النقل الصحيح في النسخ.

- ومنشأ الاشتباه عند المكثرين أمور أهمها:

(١) اعتبار التخصيص نسخًا.

(٢) اعتبار البيان نسخًا.

(٣) اعتبار ما شرع لسبب ثم زال السبب من المنسوخ. كالحث على الصبر وتحمل الأذى الكفار في مبدأ الدعوة حين الضعف والقلة قالوا إنه منسوخ بآيات القتال.

(٤) اعتبار ما أبطله الإسلام من أمر الجاهلية أو من شرائع الأمم السابقة.

أمثلة النسخ:

وقد ذكر السيوطي في الإتقان ٢١ آية اعتبرها من قبيل النسخ:

(١) قوله تعالى: { **وِلِلَّهِ المَشْرِقُ والْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وجْهُ اللَّهِ**} منسوخة بقوله { **فَوَلِّ وجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ**}.

(٢) قوله تعالى: {**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ**} قيل أنها منسوخة بآية المواريث وقبل بحديث "إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث".

(٣) قوله { وعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ} نسخت بقوله { فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} وذهب ابن عباس إلى أنها محكمة غير منسوخة.

(٤) قوله { انفِرُوا خِفَافًا وثِقَالاً} نسخت بقوله { لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ولا عَلَى المَرْضَى} والآية بقوله { ومَا كَانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً } قيل أنه من باب التخصيص لا النسخ.

(٥) قوله { والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ويَذَرُونَ أَزْوَاجًا وصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ} نسخت بقوله { ويَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وعَشْرًا} وقيل إن الآية الأولى محكمة لأنها في مقام الوصية للزوجة إذا لم تخرج ولم تتزوج.

أما الآية الثانية فهي لبيان العدة ولا تنافي بينهما.

أسئلة محتملة في مبحث ترتيب الآيات والسور

المبحث (٨)

<table><tr><td>س١: ترتيب السور توقيفي بلا خلاف (بخلاف)</td><td>(×)</td></tr></table>

س٢: ترتيب السور اجتهادي بلا خلاف (×)

(بخلاف)

س٣: ترتيب الآيات توقيفي بلا خلاف (✓)

س٤: ترتيب الآيات اجتهادي على خلاف (×)

توقيفي بلا خلاف

س٥: هل من الراجح أن نقول بأن ترتيب السور توقيفي كترتيب الآيات (✓)